
قبل أن
أقتل أحدًا
رواية تشويق ودراما نفسية
لا تنسي أقراصك
لا تفتحي الباب لأحد
أحبك ♡
تأليف
رويدا محسن

قبل أن أقتل أحدًا

رواية تشويق ودراما نفسية

تأليف

رويدا محسن

قبل أن أقتل أحدًا

رواية

تأليف: رويدا محسن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة. لا يجوز نسخ هذا العمل أو تخزينه

أو إعادة نشره بأي وسيلة دون إذن كتابي من المؤلفة.

الفهرس

افتتاحية صادمة 1
«أنا لا أفهم» 2
معرض الكتاب 10
الرجل الذي يحبها 14
الطفلة في المقعد الخلفي 16
يوم الزفاف 18
بيت صغير على النيل 21
الليلة التي تضيع 23
القلم الثقيل 25
يوم عادي في المكتبة 27
الماء 31
العاصفة 33
«أنتِ متعبة يا حبيبتي» 36
ليلة الحاجة سميّة 39
تصاعد الجرائم 42
الحاجة صفية 43
ليلة العمارة 46
الرجل الذي كان يدوّن 48
الاتصال الأخير 51
الطبيب القديم 53
التاسعة إلا خمس 56
الخيط الذي لا يُرى 58
الضابط المتسرّع 61
يوم في حياة سامح 64
الأصوات 66
المفكرة التي لم تكتبها 69

هالة تبحث..... 74
الخيانة العاطفية..... 77
لا تصدّقي نفسك»..... 78
الساعات الثلاث..... 82
غرفة التحقيق..... 90
ساعة خارج الحساب..... 96
الرجل الذي أخطأ مرة..... 100
جنازة رشدي..... 103
الجلسة الثانية..... 106
هالة والليل..... 109
التحقيق المعاكس..... 112
شهادات لا تلتقي..... 113
نور..... 116
محقق لا يفترض شيئًا..... 119
ليلة في الحجز..... 123
كتاب في الحجز..... 126
النغمة..... 129
الأسطوانة الأخيرة..... 132
الانقلاب الكبير..... 135
الأدلة التي لا تعرف بعضها..... 136
ليلة في بيت سميّة..... 144
وجه في المرآة..... 147
ليلة قبل الزجاج..... 149
القناع حين يسقط..... 152
ما بعد الزجاج..... 161
الطفل الذي كان يشاهد..... 163
صباح المحاكمة..... 165
الحساب..... 168

رسالة من الزنزانة.....171
الدكتورة منى شاهدة.....174
الزيارة الأخيرة.....177
الياسمين.....186
بعد المطر.....188
قبر سليم.....192
خاتمة.....194

افتتاحية صادمة

«أنا لا أفهم»

استيقظت لينا في السادسة والنصف على صوت المنبّه، كما تفعل كل صباح منذ ثلاث سنوات.

لم تفتح عينيها فورًا. تركت جسدها يستعيد وزنه ببطء، وأصغت إلى ما حولها في البيت: ماء يقطر من صنبور المطبخ، وسيارة تمرّ على الكورنيش، وصمت ثقيل في الجانب الآخر من السرير. فقد كان فهد غائبًا منذ ثلاثة أيام؛ سافر إلى الإسكندرية لمشروع لا يحتمل التأجيل، وترك لها ورقة صغيرة على باب الثلاجة بخطه الأنيق المائل:

«لا تنسي أقراصك. لا تفتحي الباب لأحد. أحبك.»

نهضت من السرير، وكان رأسها ثقيلًا على نحو غريب، كأنه محشوّ بالقطن المبلل، وفمها جافٌّ كفمِ من سار في صحراء. وقفت أمام المرآة تمشّط شعرها، ورأت وجهها الشاحب، وتحت عينيها هالتان بنفسجيتان.

«نمتُ كثيرًا ولم أرتحْ»، فكّرت. «هذا ما يحدث حين أنسى.»

لم تكن تعرف ماذا نسيت هذه المرة.

في المطبخ حرّكت الـترمس الفضي بجـانب الموقـد فوجدتـه فارغًا، فتعجبت. كانت قـد ملأتـه أول أمس، أو هكذا ظنّت. أعدّت الشـاي بنفسها في إبريق صغير، ووضعت الأقراص في كفها وبلعتها مع أول رشـفة، وكانت تسكب الكوب الثاني حين دقّ الباب.

لم يكن طرقًا غاضبًا، كان طرقًا منظمًا: ثلاث دقّات منتظمة، من النـوع الذي يعرف أصحابه أن الباب سيُفتح في النهاية.

«لحظة، لحظة!» قالت ذلك بصوت عالٍ.

مسحت يديها بالمنشفة، وسارت إلى الباب بخطوات متثاقلة، وفتحت.

أمامها ثلاثة رجال في ملابس مدنيـة. وقـف في المقدمـة رجل طويـل في نحـو الأربعين، هـادئ الملامح، في عينيـه تعب ليلة لم ينم فيهـا. وخلفـه، في الممر، لمحت الجارة المقابلة تنظر من فتحة بابها الموارب، وأنفاسها محبوسة.

«السيدة لينـا؟» قـال الرجل بصـوت منخفض: «أنا الملازم أول زهـران من المباحث. معنا أمر بضبطك وإحضارك.»

ضحكت باستغراب.

لم تكن ضحكة سخرية، بـل خرجت منهـا ضحكة قصـيرة مرتبكة، كأنهـا سمعت نكتة بلغة لا تجيدها.

«ضبطي؟ أنا؟ لماذا؟»

«بخصوص وفاة السيد رشدي عبد الحميد.»

وضعت يدها على جبينها وفتّشت في رأسها عن الاسم، كمن يفتّش في درج مليء بالأوراق: رشدي... رجل عجوز في العمارة المقابلة، يجلس في نافذته ومعه مفكرة وكوب شاي، يرفع يده بالتحية كلما رآها. لم تتبادل معه عشر جُمل في حياتها.

«رشدي؟ جاري؟ سمعت أنه توفي أمس، لكنني لا أعرفه جيدًا. ما علاقتي أنا؟»

تبادل زهران نظرة سريعة مع الضابط بجانبه، ثم مدّ يده إلى حقيبة شفافة، وأخرج منها شيئًا ووضعه بين يديها.

وشاح حريري أزرق.

تعرفه. تعرفه جيدًا، اشترته من خان الخليلي في شهر العسل، حين وقف فهد خلفها وقال: «هذا لونك المفضل.» كانت تضعه على كتفيها في الليالي الباردة.

«هذا وُجد حول عنق الضحية»، قال زهران. «عليه بصماتك، وعليه خلايا منك، وكاميرا مدخل العمارة المقابلة صوّرتك وأنتِ تدخلين الساعة الحادية عشرة والنصف مساء أمس.»

ارتجف الوشاح في يدها أو ارتجفت هي.

«أمس؟ أنا كنت... كنت هنا في البيت.»

هل يؤكد ذلك أحد؟

فتحت فمها لتقول: «فهد». لكن فهد كان في الإسكندرية منذ ثلاثة أيام، والبيت كان صامتًا طوال الليلة الماضية، وهي... ماذا فعلت بالضبط؟

تذكرت أنها شربت دواءها، تذكرت التلفاز، تذكرت الأريكة...

لا شيء.

فراغ أبيض ناعم ومرعب كثلج على نافذة.

«أنا لا أفهم»، قالت وصوتها يتشقق. «أقسم لكم إنني لا أفهم. أنا لا أؤذي أحدًا. لا أستطيع أن أؤذي نملة.»

لم يردّ زهران، لكنه كان يتأمل يديها وارتجافهما. لم يكن ارتجاف مجرمة تخشى العقاب، كان ارتجاف من يحاول بيأس أن يتذكر. ولاحظ أنها أمسكت كوب الشاي بيدها اليسرى حين مدّت يدها إلى الطاولة لتستند.

«هل يمكنكِ أن تلبسي معطفك وتأتي معنا؟» قال بلطف.

«هل... هل سأعود؟»

«لا أعرف.»

كانت صراحة موجعة، لكنها لسبب ما طمأنتها أكثر مما كان سيفعل أي وعد.

* * *

وهي تنزل السلالم بين الرجال، وقفت الجارة المقابلة في عتبة بابها، ومالت على جارة أخرى تهمس بصوت أرادته خافتًا فوصل:

«كنت أعرف. كانت دائمًا غريبة، تحدّث نفسها في المصعد.»

«مسكينة»، قالت الأخرى.

لم تلتفت لينا لكنها شعرت بكلمات الجارتين تنزل على كتفيها كحجارة صغيرة.

عند أول درجة من الطابق الأرضي توقفت فجأة، ومدّت عنقها إلى الخلف نحو باب شقتها المفتوح في الأعلى، تبحث بعينيها عن وجه واحد.

ثم تذكّرت أن فهد بعيد، فتمتمت دون أن يسمعها أحد:

«لو كان هنا... لو كان هنا لعرف كيف يشرح لهم.»

في سيارة الشرطة

كان الطريق إلى المديرية يمرّ على النيل، ولم تكن لينا قد رأته بهذا الشكل من قبل: رماديًّا ساكنًا، كأنه يتفحصها من خلف زجاج السيارة.

جلست في المقعد الخلفي بين الشرطي والرقيب، ويداها في حجرها. لم يكلّمها أحد، قال لها زهران قبل أن تركب بصوت منخفض: «لا حاجة لذلك الآن»، ولم تعرف لماذا شعرت بالامتنان لجملة كهذه.

كان المذياع يبثّ نشرة الصباح. سمعت صوتًا رتيبًا يتحدث عن الطقس والأسعار، ثم بنبرة مختلفة قليلًا: «وفي منطقة المعادي عُثر على المواطن رشدي عبد الحميد متوفى داخل شقته...»

أغلق السائق المذياع بسرعة.

«لا بأس»، قالت لينا بهدوء غريب. «أعرف.»

نظرت إلى يديها، كانتا نظيفتين، ناعمتين، لا شيء فيهما. حاولت أن تتخيلهما تقبضان على وشاح، تشدّان شيئًا، تؤذيان إنسانًا. لم تستطع، كان الخيال يرفض.

«ربما هذا هو الدليل»، فكّرت، «فالذين يفعلون هذا لا يستطيعون تخيّله بعد ذلك.»

عبرت السيارة جسر قصر النيل، وبدت لها مراكب الصيد الصغيرة عند الضفة كأنها لعب منسية. تذكرت جملة قالتها لها أمها يومًا: «الأشياء الجميلة تحتاج من يراها أولًا.»

وفي الأمام كان زهران يتأمل المرآة الصغيرة فوق الزجاج، ويراها فيها: وجهًا شاحبًا متعبًا، وعينين تتجنبان النظر إلى أي شيء. ولم يكن في وجهها شيء من ملامح من اعتاد إخفاء الحقيقة؛ كان في وجهها شيء آخر... ما يشبه الاعتذار لأمر لم تفعله.

وعند مدخل المديرية أمسك لها الباب بنفسه.

«تفضّلي يا سيدة لينا.»

«ألن تقيّدوني؟»

«ليس بعد.»

الملف الأول

في مكتبه فتح زهران الملف الأول للقضية، وكان قد وصل إليه قبل ساعة: ثلاث صفحات، صور، وتقرير أولي من الطب الشرعي.

رشدي عبد الحميد، ٧١ عامًا، موظف متقاعد. علامات اختناق. لا أثر لكسر الباب. لا أثر لسرقة.

لا أثر لسرقة!

توقف عند الجملة: من يقتل رجلًا مسنًّا ولا يسرقه؟

ومن يقتله دون أن يكسر بابه؟

لا بد أنه فتح للقاتل بنفسه. لا بد أنه عرفه!

قلّب الصور: شقة صغيرة نظيفة، طاولة قرب النافذة عليها كوب شاي وقلم أزرق، وفي زاوية الصورة كرسي خشبي مقلوب. وجه الرجل ويداه... كانتا مفتوحتين، كأنه حاول أن يمسك بشيء فلم يجده.

وفي الصفحة الأخيرة سطر كتبه المحقق المبدئي بخط متسرع: «المشتبه بها: الجارة لينا. تاريخ مرضي نفسي. الأدلة متوفرة.»

أمسك زهران القلم، وشطب كلمة «متوفرة»، وكتب بدلها: «موجودة، ليست بالضرورة متوفرة للحقيقة.»

ثم أسند ظهره إلى الكرسي، وأغمض عينيه لحظة. كان يعرف أنه سيدفع ثمن هذه العبارة قبل أن تنتهي القضية، وكان يعرف أيضًا، بيقين لا يستند إلى دليل، أن المرأة التي تجلس الآن في غرفة الانتظار لم تقتل أحدًا.

لكن اليقين لا يُقبل في المحاكم؛ الأدلة وحدها هي التي تُقبل.

فنهض، وطلب كوب قهوة، وبدأ العمل.

معرض الكتاب

(قبل ثلاث سنوات)

في ذلك الشتاء كانت لينا تعيش بنظام صارم صنعته بنفسها: أقراص الصباح، دفتر المواعيد، قائمة الأشياء التي لا ينبغي نسيانها، وبيت يخلو من المفاجآت. كل شيء مكتوب؛ لأن الذاكرة، كما علّمتها السنوات، خائنة صغيرة لا يُؤمَن لها جانب.

ذهبت إلى معرض الكتاب لأن الطبيبة قالت لها: «اخرجي وسط الناس يا لينا، لا تتركي نفسك للجدران.»

كانت واقفة أمام رف الشعر حين اصطدم بها كتفٌ دافئ، وتناثرت كتبها على الأرض.

«آسف! آسف جدًّا، يا لغبائي!»

انحنى الشاب يلملم الكتب معها. كانت له يدان نظيفتان وابتسامة مطمئنة كوجه بيت قديم. وحين وصلت أصابعهما إلى الكتاب نفسه، فتح الغلاف ونظر إليه.

«نزار؟ قلتُ لنفسي: هل ما زال أحدهم يقرأ نزار بصدق؟»

«أحب قصيدته عن الرسائل القديمة»، قالت من غير أن تفكر.

«بالضبط»، قال وعيناه تلمعان، «وأنا كنت أبحث عن أحد يقولها بهذه الطريقة.»

كان لافتًا كيف انسابت المحادثة. سألها عن عملها وعن الكتب التي تحبها، وأصغى كأن كلامها كنز. وحين ذكرت عرضًا أنها لا تحب الأماكن المزدحمة، قادها دون أن يعلّق إلى ركن هادئ خلف جناح دور النشر الصغيرة.

«فهد...» قال وهو يمدّ يده.

«لينا.»

«اسم لا يُنسى.»

ضحكت، وشعرت للمرة الأولى منذ شهور بشيء ينفتح في صدرها كنافذة.

بعد ذلك صار يظهر في حياتها كأنه كان دائمًا هناك: يتصل في الموعد الذي تحتاج فيه إلى صوت، ويتذكر اسم صديقتها التي ذكرتها مرة واحدة، ويحضر لها الشاي بالنعناع دون أن تطلب. وحين اعترفت له، في أمسية

مرتجفة على كورنيش النيل، بأنها تتلقى علاجًا نفسيًّا وتعاني أحيانًا من فجوات في الذاكرة، لم يتراجع.

أمسك يدها وقال:

«وهل تظنين أن هذا يغيّر شيئًا؟ كلنا نحمل شيئًا ما. أنتِ فقط أشجع من غيرك، لأنكِ تعرفين اسمه.»

بكت، لم يسبق أن قال لها أحد هذا.

ولأن القلب حين يبكي لا يدقق، لم تلتفت إلى أشياء صغيرة مرت في تلك الأسابيع كأنها حصى في حذائها:

أنه عرف أنها تتناول أقراصًا معينة قبل أن تذكرها، وقال إنه خمّن من علبة رآها في حقيبتها.

وأنه حين اقترحت أن يقابل طبيبتها ضحك بلطف وقال: «لا حاجة، أنا طبيبك الآن.»

وأنه مرة، عندما تأخرت عليه عشر دقائق، لم يغضب، لكنه ظل ينظر إليها طوال المساء بنظرة ساكنة غريبة، كأنه يقيس شيئًا فيها.

ولما سألته عن عائلته قال إنه وحيد منذ زمن، ثم غيّر الحديث إلى الطقس بسلاسة شخص تدرّب على ذلك.

في الشهر الرابع ركع على الرصيف نفسه وفتح علبة صغيرة.

«لا أعدك بحياة بلا عواصف يا لينا، لكنني أعدك ألا تواجهي أيًّا منها وحدك.»

قالت: «نعم»، وقالتها بكل ما فيها من حاجة قديمة إلى أن يمسك بها أحد.

وفي تلك الليلة، حين عادت إلى بيتها وكتبت في دفتر مواعيدها: «تزوجتُ اليوم قلبي»، لم تلاحظ أن الخط في آخر الصفحة كان أنيقًا أكثر مما تعودت، ومائلًا إلى اليمين قليلًا. لم تلاحظ، لأنها لم تكن تعلم أن يدًا أخرى، في ذلك المساء نفسه، قد فتحت الدفتر وقرأته كله.

الرجل الذي يحبها

(قبل أن يحدث كل شيء)

كان أبو لينا، ناجي، مهندس صوتيات في الإذاعة، رجلًا يؤمن بأن لكل شيء في الدنيا نغمة.

«المطر مثلًا»، كان يقول وهو يحمل ابنته الصغيرة إلى النافذة، «اسمعي: ليست كل قطرة تسقط بالشكل نفسه. هذه خفيفة، هذه ثقيلة، هذه تتردد قبل أن تلمس الزجاج... كأنها تفكر.»

«والمطر يفكر يا بابا؟»

«كل شيء يفكر يا لينا. المهم أن نصغي.»

كان يضع لها سماعات كبيرة على أذنيها، ويسمعها أصواتًا من أرشيف الإذاعة: صوت أمواج، وخطوات في الثلج، وضحكة طفل لا تعرف من أي بلد. وكانت تضحك وتقول: «أنت تسرق الأصوات!»

«أنا لا أسرقها، أنا أحفظها لتبقى.»

كان هو من علّمها أن الذاكرة ليست مخزنًا ضخمًا، بل نغمات صغيرة متفرقة، إذا لم نصغِ إليها ضاعت. وكان يقول لها قبل النوم كل ليلة جملة واحدة يكررها بصوته الدافئ: «اسمعي نفسك يا لينا، فأنتِ أصدق من يعرفك.»

ولما مات لم تعد لينا تستطيع أن تسمع المطر دون أن يضيق صدرها، ولا تلك الجملة دون أن تنتفض.

لكنها كانت تحفظها في مكان ما بين الفجوات؛ بقيت الجملة سليمة، تنتظر من يعيد إليها معناها.

الطفلة في المقعد الخلفي

(قبل ثمانية عشر عامًا)

كانت لينا في الثانية عشرة حين مات أبوها، وكان المطر يومها غزيرًا، كأنه يغسل الطريق من شيء ثقيل.

كانوا عائدين من بيت جدتها في الريف: أبوها يقود وهو يدندن بأغنية قديمة، وأمها بجانبه تغفو، ولينا في المقعد الخلفي تضع جبهتها على الزجاج وتعدّ قطرات المطر، وتخبره بنتائج المباراة التي تلعبها مع نفسها: «هذه تسبق تلك يا بابا، انظر!»

«أنتِ دائمًا تفوزين يا لينا»، قال ضاحكًا.

كانت تلك آخر جملة سمعتها منه.

لا تتذكر لينا الاصطدام، لا تتذكر الصرخة، ولا الزجاج المتناثر. تتذكر فقط أن المطر توقف فجأة، وأن العالم صار بلا أصوات، وأن أحدًا يمسك يدها ويقول: «لا تنظري يا حبيبتي، لا تنظري.»

وبعد ذلك بدأت الفجوات.

صارت تستيقظ في الصباح فلا تتذكر إن كانت قد أكلت، وتجد نفسها في غرفة أمها دون أن تعرف كيف وصلت، وتسمع المعلمة تقول: «لينا، لماذا لم تجيبي؟» فترد بدهشة: «لقد أجبت.»

أخذتها أمها، وهي ما زالت تلبس ثياب الحداد، إلى طبيب نفسي صغير السن طيب الصوت اسمه عادل الشرقاوي.

لم يضع الدكتور عادل أمامها اختبارات كعادة الأطباء النفسيين، بل جلس على الأرض قريبًا منها وقال:

«يقولون إن عقلك أغلق بعض الأبواب ليحميكِ. هل تعرفين أن هذا ليس عيبًا؟ هذه شجاعة صامتة.»

«هل أنا مجنونة؟» سألت بصوت لا يتجاوز الهمس.

«الشخص المجنون لا يسأل هذا السؤال، ولا يخاف على الآخرين كما تخافين.»

ظلت تتذكر جملته ثمانية عشر عامًا، وحين كبرت صارت تقول لنفسها: «لا بأس. إن كان عقلي يغلق أبوابًا، فسأتعلم أن أفتح غيرها.»

لم تكن تعرف أن هناك من سيتعلم بعد سنوات كيف يطرق تلك الأبواب نفسها... ليدخل منها.

يوم الزفاف

كان زفافًا صغيرًا، هذا ما أصرّ عليه فهد.

قال لأم لينا: «أريدها لحظة نقية، بلا ضوضاء ولا مجاملات. نحن الاثنان، ونحتاج إلى بعضنا فقط.»

اعترضت سميّة، والدة لينا، بلطف؛ قالت إنها ابنتها الوحيدة، وإنها تريد أن تراها وسط أهلها وأحبابها. ابتسم فهد بحنان وقال:

«وسط من يا خالة؟ نحن لم نترك لها إلا القلة. أنا أريد أن أكون جدارها، لا مدخل للغرباء.»

لم تجد سميّة ما تقوله؛ كانت ترى في عينيه صدقًا يشبه الطيبة، وفي صوته نبرة تجعل أي اعتراض يبدو قاسيًا.

وهكذا اجتمعوا في شقة صغيرة: لينا في فستان أبيض بسيط اختاره فهد بنفسه، قائلًا: «هذا يليق بنقائك»، وأمها في ثوب بنفسجي، وهالة، صديقتها الوحيدة المقرّبة، التي حضرت بقلب ثقيل لا تعرف سببه، وشاهدان من

أصدقاء فهد لم يرهما أحد قبل الزفاف ولا بعده، ومأذون يقرأ بصوت رتيب.

حين سُئلت لينا إن كانت توافق، التفتت إلى فهد قبل أن تجيب. ابتسم لها، ثم قالت: «أوافق.»

صفّقت هالة بحماسة مفتعلة، وبكت سميّة بصمت.

ثم، في لحظة التقاط الصور، اقتربت سميّة من فهد وقالت بهدوء:

«أمانتي عندك يا بني. بنتي ليست كغيرها، هي أرق من أن تتحمل خطأً واحدًا.»

أمسك فهد يدها بيديه الدافئتين، ونظر في عينيها مباشرة:

«لن أُخطئ معها أبدًا يا خالة. أعدك.»

كانت يداه باردتين بشكل غريب. لاحظت سميّة ذلك، ثم قالت لنفسها: «ربما بسبب الجو.»

وفي منتصف الليل، حين نامت لينا في بيتهما الجديد، سمعت وهي بين اليقظة والنوم صوته يهمس بجانب أذنها:

«الآن أنتِ لي.»

كانت جملة حب، هكذا فهمتها، وابتسمت وهي نائمة.

لم تكن تعلم أن الكلمة التي نُطقت بدفء العشاق كانت تحمل معنى آخر تمامًا، معنى لا يُفهم إلا متأخرًا.

بيت صغير على النيل

كانت الشقة في الطابق الرابع، بشرفة تطلّ على النيل، وفيها رائحة خشب جديد وخبز دافئ. اختارها فهد، وقال وهو يفتح لها الباب بعد الزفاف:

«هنا لن يزعجك أحد، وهنا ستتعلمين أن تتنفسي.»

مرّت الشهور الأولى كحلم طويل لم تُصدّق لينا أنها تستحقه. كان يوقظها بقهوتها، ويوصلها إلى عملها في المكتبة، ويعيدها في المساء بوردة واحدة، دائمًا واحدة، لأن «الوردة الواحدة أصدق من باقة». وكان يدوّن لها مواعيد أقراصها على ورقة ملونة يعلّقها على باب الثلاجة بخطه الأنيق المائل.

«لا أريدك أن تحملي هذا العبء وحدك»، كان يقول لها هذا دائمًا.

وكانت تضحك وتقبّل خدّه، هي التي لم يرعها أحد منذ كانت في الثانية عشرة، حين مات أبوها وبقيت مع أمٍّ مرهقة لا تعرف كيف تحتضن حزن ابنتها.

لكن الحياة مع الآخر تكشف أشياء لا تكشفها المواعيد.

اكتشفت أن فهد لا يحب الضيوف: «نحن نكفي بعضنا»؛ فصارت زيارات هالة أقل، ثم صارت مكالمات، ثم رسائل تتأخر.

واكتشفت أنه يحتفظ بدفتر صغير في الخزانة، فسألته مرة، فابتسم:

«حسابات المشاريع يا لينا. أنا مهندس ممل.»

وصدّقته؛ فقد كان كل ما فيه يدعو إلى التصديق.

وفي ليلة من ليالي الخريف، وقفت أمام المرآة تمشّط شعرها، فرأته من خلفها في الزجاج. كان واقفًا عند باب الغرفة يراقبها بلا ابتسامة، بلا حنان، بوجه فارغ كصفحة لم تُكتب. ثم التفتت فابتسم في اللحظة نفسها، كأن شيئًا ضغط زرًّا.

«جميلة»، قال لها.

وشعرت بقشعريرة قصيرة، ثم قالت لنفسها إن الأضواء خادعة، وإن المرايا تكذب، وإنها قبل كل شيء لا تثق بعينيها دائمًا.

الليلة التي تضيع

استيقظت لينا في صباح يوم أحد بطعم تراب في فمها.

كان الضوء رماديًّا والستائر نصف مفتوحة، وهي ممددة على الأريكة في الصالة بحذاء في قدميها. حذاء! بينما آخر ما تذكره أنها ذهبت إلى النوم في العاشرة بعد أقراصها.

نظرت إلى الحذاء، كان عليه طين جاف.

«فهد!»

جاء من المطبخ بسرعة، وجهه مشدود بقلق صادق، أو هكذا بدا.

«ما بكِ يا حبيبتي؟»

«أنا... الحذاء... لا أذكر أنني خرجت.»

جلس بجانبها وأمسك بيديها، ثم قال بصوت منخفض مدروس:

«لينا، لا تخافي. وجدتك الليلة الماضية عند باب العمارة حوالي الثالثة. كنتِ تمشين وأنتِ نائمة، عيناك مفتوحتان وتقولين كلامًا غير مفهوم. أعدتك إلى البيت وجلست بجانبك حتى غلبك النوم.»

شحب وجهها.

«أنا... أمشي نائمة؟»

«لم تخبريني أنك فعلتِها من قبل، لكن الطبيب ربما ذكر لك. لا تقلقي، سنتدبر الأمر.»

حاولت أن تتذكر. فتّشت في عتمة رأسها عن فتات مشهد: الباب، الدرج، الشارع. لا شيء. ولكن شيئًا ما دقّ في أعماقها، لا هو بذاكرة ولا بإحساس، مجرد إشارة خافتة كصوت جرس في بئر: «أنا لم أنم تلك الليلة بهذه الصورة. أنا أتذكر الأقراص... وأتذكر أنه... أنه جاء بكوب الماء...»

كوب الماء. لماذا خطر ببالها كوب الماء؟

«فهد... الأقراص... أنت أعطيتني دوائي بنفسك؟»

نظر إليها لحظة طويلة جدًّا، ثم ابتسم بحنان موجع:

«لينا، أنتِ تأخذينها وحدك دائمًا. هل نسيتِ هذا أيضًا؟»

شعرت بالخجل يحرق وجنتيها. كيف لها أن تسأل سؤالًا كهذا؟ ربما هي من تخطئ فعلًا.

وفي ذلك المساء كتبت في دفترها: «أمشي نائمة. أخبري الطبيب.»

لكن حين فتحت الدفتر في اليوم التالي لم تجد الجملة.

القلم الثقيل

في الشهر الثاني من الزواج عاد فهد من عمله بعلبة صغيرة مغلفة بورق أزرق.

«هدية»، قال وعيناه تلمعان بلهفة طفولية.

كانت العلبة تحوي قلمًا ثقيلًا من النوع القديم، ذهبي الغطاء، ينساب الحبر منه كالماء.

«لأجلك. قرأت أن الكتابة اليدوية تعيد ترتيب الأفكار، وأنتِ... تحتاجين إلى أن تعيدي ترتيب بعض الأشياء، أليس كذلك؟»

«فهد، إنه جميل جدًّا...»

«سنتدرب معًا. سأعطيك كل مساء جملة وتكتبينها عشر مرات، ليس لشيء سوى أن تعودي واثقة بيدك. حين تثق اليد بنفسها، يثق العقل.»

بدت الفكرة حنونة، ولم تكن لينا تحمل في داخلها قوة الاعتراض.

وفي كل مساء بعد العشاء كان يجلس بجانبها ويكتب لها جملة بخطه الأنيق المائل، وكانت تنقلها سطراً بعد سطر بيدها اليسرى المرتجفة:

«أنا أثق بيدي.»

«أنا أعرف ما أكتبه.»

«اسمي لينا، وأنا أتذكر.»

وحين تنتهي كان يجمع الورق بحنان، ويقبّل جبينها، ويقول:

«أحسنتِ. سأحتفظ بها لنراها معًا بعد سنة، ونضحك من الطريق الذي قطعناه.»

وكانت تبتسم وتشعر بشيء يشبه الأمان؛ فقد صار لها طقس صغير في اليوم، شيء تفعله بيدها لا يطلب منها أن تتذكر.

لكن في أحد الأيام نظرت إلى الجملة التي كتبتها لتوّها، «أنا أثق بيدي»، وشعرت أنها لا تعرف يدها. كانت كأنها تنظر إلى يد شخص آخر يكتب بخطٍّ يشبهها.

لم تقل شيئًا. وضعت القلم الثقيل جانبًا، وتساءلت للمرة الأولى: لماذا يبدو الخط الجميل أبعد ما يكون عن اليد التي تكتبه؟

يوم عادي في المكتبة

كانت المكتبة التي تعمل فيها لينا تقع في زقاق جانبي بحي المعادي. يملكها رجل سبعيني اسمه الأستاذ أنور، يرتدي دائمًا ستراته الصوفية الرمادية، ويحتفظ بقلم رصاص خلف أذنه كأنه نسي أنه لا يزال هناك.

كان يحب لينا حبّ الأب الذي لم يُرزق ببنات. يتركها تعتني بركن الشعر وركن الأطفال، ويقول لها كل صباح: «هذه أماكن لا تُؤتمن عليها إلا يد حنون.»

في ذلك الخميس كانت تصنّف كتبًا جديدة على الرف حين اقتربت منها طفلة في الثامنة، بضفيرتين وحقيبة وردية.

«آنسة، هل عندك كتاب عن الأرانب الشجاعة؟»

«الأرانب الشجاعة؟» ابتسمت لينا. «سأبحث لك.»

وجدت لها كتابًا صغيرًا بغلاف أخضر، وجلست معها على الأرض تقرأ لها أولى صفحاته بصوت يتمايل مع الحكاية. وللحظات نسيت لينا كل شيء:

الأقراص، والفجوات، والصمت الذي يملأ البيت. كان عالمها كله حكاية أرنب يتعلم أن الشجاعة ليست ألا يخاف، بل أن يمشي رغم ذلك.

«هذه أحلى قراءة سمعتها»، قالت الطفلة.

«شكرًا يا صغيرتي.»

لاحظ الأستاذ أنور المشهد من خلف مكتبه وتنهد، ثم نادى لينا بعد انصراف الطفلة:

«لينا، تعالي.»

«نعم يا أستاذ!»

«لقد أصبحتِ نحيلة!»

«لا، أبدًا.»

«ولا تنامين. عيناك تقولان ذلك قبل أن تقوليه أنتِ. ما رأيك أن تأخذي أسبوعًا إجازة؟»

«أنا أتدبّر الأمر.»

«أنا بخير يا أستاذ. فهد يعتني بي.»

سكت الرجل لحظة، ثم قال بصوت منخفض، ببطء من يعرف أن كل كلمة تُزن:

«أنا لا أعرف زوجك جيـدًا، لكنـني أعرف أن الوجه الذي يحب لا يطلب من صاحبته أن تقلّ من أصدقائها.»

«هو لا يطلب، هو فقط...»

«لينا.» نظر في عينيها. «لا تقولي شيئًا. فقط خذي هذا.»

ناولها بطاقة صغيرة عليها رقم هاتف.

«رقمي الخاص، إن احتجتِ شيئًا في أي ساعة.»

في الخامسـة تمامًـا دخل فهـد المكتبـة بابتسـامته المعتـادة، يحمـل وردة واحدة.

«أهلًا يا أستاذ. أرجو ألا تكون قد أرهقتها.»

«هي من يُرهقنا بدقتها»، ضحك الأستاذ ضحكة قصيرة.

أخذ فهـد حقيبتهـا بنفسـه وتنـاول يدها بحنـان، وفي طريقهمـا إلى البـاب لاحظ البطاقة الصغيرة بين أصابعها.

فسألها: «ما هذه؟»

«رقم الأستاذ أنور، في حال...»

قـال لهـا: «سـأحفظه لك»، وسحبها بلطـف من يدها ووضـعها في جيبـه. «هكذا لن تضيع.»

لم تحتج لينا؛ كانت تتعلم ألا تحتج.

وفي الأسـبوع التـالي، حين حاولت أن تعـثر على الرقم لم تجـده، وحين سألت فهد نظر إليها بدهشة حنون وقال:

«أي رقم يا حبيبتي؟ لم يعطك أحد بطاقة.»

الماء

في شهر العسل أخذها فهد إلى العين السخنة.

كان الصباح صافيًا والبحر أزرق، لا يشبه شيئًا مما عرفته لينا في حياتها. وقفت عند الشاطئ ترتجف، تضم ذراعيها إلى صدرها.

«لا أعرف السباحة»، همست.

«لا تخافي، أنا هنا.»

أمسك يدها وسار بها إلى الماء خطوة بعد خطوة، وصوته يلاحقها بالطمأنينة: «ثقي بي، سأمسكك.»

حين وصل الماء إلى صدرها أفلت يدها قليلًا، كما يُعلَّم الأطفال، ليريها أنها تستطيع أن تطفو.

«أنا أمسك بك من تحت»، قال. «لا تنظري. فقط استلقي.»

أغمضت عينيها واستلقت، والسماء فوق وجهها بيضاء متوهجة. وفجأة خفّ تحتها الإحساس باليد، ثم لم يعد هناك شيء.

غاصت. كان الماء مالحًا باردًا، يملأ أذنيها وأنفها، وصوتها يتحول إلى فقاعات. فتحت عينيها، فرأت ضوءًا مرتجفًا فوقها، وساقيها تتحركان بلا اتجاه، وصدرها يضيق.

ثم رأته. كان واقفًا على بعد خطوة، الماء عند خصره، ينظر إليها بوجه هادئ جدًّا. لم يتحرك، لم يمدّ يده، فقط ينظر نظرة طويلة فضولية شبه حالمة.

ثانيتان، ثلاث.

ثم مدّ ذراعيه بقوة وأخرجها من الماء، وضمّها إلى صدره وهو يصرخ بذعر متقن:

«لينا، حبيبتي! سامحيني، أفلتُّك لحظة! يا إلهي!»

بكت وتشبثت به.

«لا أعرف كيف أنقذتني»، قالت متقطعة.

«ما كان لي أن أتركك. لن أتركك ثانية واحدة بعد اليوم.»

وكان صدره يرتفع وينخفض بسرعة، وقلبه يدق، وعيناه رطبتان.

لا أحد يمكن أن يشك في هذا المشهد، ولا هي شكّت. لكنها في الليل، وهي تنظر إلى السقف، تذكرت وجهه في الماء، الوجه الهادئ المتأمل، وقالت لنفسها: «الخوف يجعل الوقت أبطأ. ثلاث ثوانٍ تبدو كدقيقة.»

وأغمضت عينيها وقررت أن تصدق.

العاصفة

انقطعت الكهرباء في الثانية فجرًا، وعصفت الريح بالنوافذ كأنها تحاول اقتحام البيت.

استيقظت لينا على صوت الرعد. كانت الغرفة سوداء، لا ترى فيها يدها. مدّت ذراعها نحو الجانب الآخر من السرير: فارغ، بارد.

«فهد؟»

لا جواب.

نهضت ببطء، ويدها على الجدار. في الممر، ضوء برق خاطف أنار الصالة لجزء من الثانية، فرأته.

كان واقفًا عند النافذة الكبيرة، ظهره إليها، ساكنًا تمامًا، يحدّق في العاصفة. لم يكن يرتجف، لم يكن يتفقد شيئًا، فقط يقف كمن يشاهد عرضًا.

«فهد؟»

التفت ببطء، وجاء برق ثانٍ فرأت وجهه لحظة. كان يبتسم ابتسامة صغيرة راضية، كمن يستمتع بمشهد جميل.

ثم عاد الظلام.

«لينا؟» جاء صوته مرتبكًا قلقًا. «لماذا قمتِ؟»

«كنت أتأكد من النوافذ.»

«كنتَ تبتسم.»

«ماذا؟»

«عند النافذة، رأيتك تبتسم!»

ضحك ضحكة خافتة، واقترب منها وأمسك كتفيها:

«حبيبتي، أنتِ نصف نائمة، والظلام والبرق يصنعان وجوهًا. ربما رأيتِ انعكاس البرق على شفتي.»

«لا...»

«لينا، هل تحسّين أنك بخير؟»

«تعالي، اجلسي. سأحضر لك ماء.»

أجلسها على الأريكة وغطاها ببطانية، وذهب إلى المطبخ. وفي الظلام مرّ ضوء هاتفه الصغير ثم اختفى. وحين عاد، كان معه كوب ماء وحبّتان صغيرتان على كفه.

«هذه سوف تهدئك. أنتِ تتخيلين لأنكِ متعبة.»

أخذتهما وشربت.

وفي الصباح، حين استيقظت وحدها على الأريكة والشمس تملأ الغرفة، لم تتذكر شيئًا مما جرى بعد الكوب. لكنها تذكرت بوضوح مدهش أنها رأت وجهه يبتسم للعاصفة.

كتبتها في دفترها، ولم تجد الجملة في اليوم التالي.

«أنتِ متعبة يا حبيبتي»

بدأ الأمر بتفاصيل تافهة، كأنها لا تستحق الوقوف عندها.

مفاتيحها لا تكون في الحقيبة حيث تركتها؛ فنجان الشاي الذي تتذكر أنها غسلته يظهر على الطاولة؛ فستانها الأخضر الذي كانت متأكدة أنه في الخزانة معلّق على كرسي غرفة النوم؛ ورسالة من هالة تصلها فتجدها قد «قُرئت» من قبل أن تفتحها.

وفي كل مرة كانت تسأل فيها فهد عمّا يحدث، كان جوابه واحدًا، مغلفًا بحنان لا مثيل له:

«حبيبتي، أنتِ التي وضعتِه هناك. لا بأس، أنتِ متعبة.»

صارت تكتب كل شيء وتصوّر الأشياء بهاتفها، لكنها كانت تجد أحيانًا أن الصورة غير موجودة، أو أن الملاحظة كُتبت بخطّ يشبه خطها لكنها لا تذكر أنها كتبتها.

اتصلت بالطبيبة د. منى وطلبت موعدًا عاجلًا، وحين أخبرت فهد في المساء لم يغضب، بل جلس بجانبها وتنهّد وقال بلطف قاتل:

«لينا، أنا لا أمنعك، لكن ألا ترين أن ذهابك إلى الطبيبة منذ سنوات لم يجعل الأمور أفضل؟ أنا قلق من أن كثرة الأدوية التي تأخذينها والجلسات هي سبب التشوش والنسيان المتكرر. ربما تحتاجين راحة، ثقة، أن تعتمدي على من يحبك.»

«لكنني خائفة...»

«وأنا معك. ألا يكفي أنني معك؟»

كان يربت على شعرها وهو يقول ذلك، وكانت دموعها تسيل على صدره. شعرت في تلك اللحظة أنها تغرق، وأنه الحبل الوحيد للنجاة، ولم تدرك أنه من يرفع الماء.

ألغت موعد الطبيبة، ثم ألغت موعد الأسبوع التالي له، ثم كفّت عن الرد على هالة، لأن فهد قال إن هالة «تقلقها بأسئلتها وتحسسها بالذنب». وفي الشهر الثالث، حين جاءت أمها لزيارتها، لاحظت الأم شحوب ابنتها ونحافتها، وسألتها بحذر:

«لينا، أنتِ بخير يا حبيبتي؟»

ونظرت لينا إلى فهد، الذي كان يصبّ الشاي بتلك الابتسامة الجميلة، وقالت بصوت ضعيف مستسلم:

«بخير يا ماما. أنا فقط... متعبة.»

لم ترَ الأم النظرة التي كانت تلمع في عيني زوج ابنتها حين استدار، لكن شيئًا في قلبها، شيئًا ورثته من خوف الأمهات القديم، ظلّ ينبض بالتحذير طوال طريق عودتها.

ليلة الحاجة سميّة

لم تنم سميّة، والدة لينا، تلك الليلة.

جلست على حافة السرير في شقتها الصغيرة بحي شبرا، تحدّق في الحائط، وقد وضعت يديها المتعبتين في حجرها كمن يتأمل أدوات لم تعد تنفع.

كانت صورة ابنتها تلاحقها: عيناها المطفأتان، وخدّاها الغائران، وتلك الطريقة الجديدة في الكلام، كأنها تطلب الإذن قبل كل جملة.

«أنا لم أربّها هكذا.»

ثم نهضت، وأشعلت الضوء، وأخرجت من الدرج علبة قديمة فيها صور وأوراق ورسائل. وجدت صورة قديمة للينا في الخامسة، تضحك بلا قلق وهي تمسك بالونًا أحمر.

«أين ذهبتِ يا ابنتي؟» همست.

ثم تناولت الهاتف. كانت أصابعها ترتجف وهي تبحث عن رقم لم تتصل به منذ فترة طويلة: هالة، صديقة لينا القديمة.

«ألو، هالة؟ أنا سميّة، أمّ لينا.»

كان الصمت على الطرف الآخر ثقيلًا، ثم قالت هالة بصوت خافت:

«كنت سأتصل بك يا خالة، لكنني... خفت.»

«من ماذا؟»

«لا أعرف. من كل شيء.»

اتفقتا على اللقاء في مقهى صغير بجانب محطة المترو صباحًا. وحين جلستا أمام كوبي شاي لم يُمسّا، تبادلتا النظرات ذاتها: نظرات امرأتين تعرفان أن شيئًا ما خطأ، ولا تملكان الكلمات لقوله.

«رسالة جاءتني من رقم فهد تقول إنني أرهق لينا»، قالت هالة وهي تخرج هاتفها. «لكن لينا لا تكتب هكذا. هي لا تقول "أرهقك" أبدًا، هي تقول "آسفة".»

قرأت سميّة الرسالة، ثم قالت بهدوء:

«لينا لم تعد تردّ على اتصالاتي، ورسالتي الأخيرة اختفت.»

فسألت هالة باستغراب شديد: «اختفت؟»

«قال لي إنها نائمة، وإنها متعبة، وإن زيارتها لطبيبتها بعد أسبوع. ثم اتصلت بعيادة الدكتورة منى، فقالوا إن لينا ألغت كل مواعيدها منذ شهور.»

نظرتا إلى بعضهما، ولم تقل أيّ منهما ما كان في ذهنها، لأن الخوف حين يتشابه عند اثنين لا يحتاج إلى أن يُقال.

«سنراقب»، قالت سميّة أخيرًا. «سنسأل، وسأقف أمام باب بيتها إن لزم.»

«وإذا كانت الإجابة... أسوأ مما نتخيل؟»

أمسكت سميّة يد هالة، وكانت يدها صغيرة جافة ولكنها قاسية، كأيدي النساء اللاتي ربّين وحيدات.

«حينها سأكون أسوأ من ذلك الجواب.»

تصاعد الجرائم

الحاجة صفية

كانت الحاجة صفية تسكن الشقة المجاورة منذ أربعين عامًا؛ امرأة مسنّة بيضاء الشعر، تحتفظ في شقتها بقطط كثيرة، وكانت تحب لينا وتناديها «يا عروسة» وإن مرت الشهور.

في ظهيرة يوم خميس طرقت لينا بابها بوعاء شوربة صنعته بيدها، فقد كانت الحاجة مريضة.

«ربنا يخليكِ يا بنتي»، قالت الحاجة وهي تتناول الوعاء بيدين مرتعشتين. «إنتِ طيبة. عارفة؟ أنا بقلق عليكِ.»

«قلقانة عليّ؟»

تلفّتت الحاجة صفية كمن يخشى أن تسمعها الجدران:

«الراجل ده... جوزك... أنا شفته مرة بيبصلك وإنتِ نايمة على الكنبة. شفته من الشباك اللي كان مفتوح. كان بيبصلك وبيكتب حاجة في ورقة.»

ضحكت لينا ضحكة قصيرة متوترة.

«كان يدوّن مواعيد أقراصي يا حاجة. هو بيراعيني.»

نظرت إليها الحاجة بحنان حزين:

«يمكن يا بنتي. يمكن. أنا عجوز وبقول كلام كتير.»

وقبّلتها لينا على جبينها ومضت، لم تعلم أن هذه آخر مرة تراها فيها حيّة.

في صباح الجمعة وجد البوّاب باب شقة الحاجة صفية مفتوحًا، والشقة في فوضى، والقطط تموء في الممرات، والحاجة ممددة على السجادة ويدها ما زالت تقبض على مسبحتها.

أعلن الطبيب الشرعي مبدئيًّا أن الوفاة بسبب اختناق، ثم تغيّرت الصيغة في اليوم التالي إلى «جريمة قتل».

وجاء الضابط يسأل الجيران: «من رأى الحاجة آخر مرة؟»

فقالت الجارة المقابلة بتردد:

«لينا... ذهبت إليها في الظهر بوعاء شوربة.»

وقف الضابط يدوّن، ورفع عينيه إلى لينا التي كانت واقفة على السلم، ترتجف وتمسك بذراع فهد.

«أنا فعلًا ذهبت إليها، لكنني خرجت بعد دقائق. كانت بخير. كانت تحدثني.»

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لا شيء. عدت إلى شقتي ونمت.»

«نمتِ؟ طوال الليل؟»

وهنا ترددت، لأن شيئًا ما في الجزء المظلم من رأسها همس: «هل نمتِ فعلًا؟»

أحاط فهد كتفها بذراعه وقال للضابط بحزم رقيق:

«زوجتي مريضة يا حضرة الضابط، وأنا سأبقى معها. إن احتجتم أي شيء، أنا في خدمتكم.»

ومضى الضابط وفي رأسه علامة استفهام صغيرة لا تكفي لإدانة أحد.

في تلك الليلة، حين فتحت لينا حقيبتها لتخرج مفكرتها، لمع شيء صغير في الجيب الداخلي للحقيبة. مدّت يدها فأخرجته.

كان خاتمًا ذهبيًّا قديمًا بحجر فيروز باهت: خاتم الحاجة صفية! الذي كانت تقول إنها ورثته عن أمها وإنها لم تخلعه منذ ستين عامًا.

لم تصرخ لينا، لم تستطع. وقفت صامتة كتمثال، والخاتم يبرد في كفّها كقطعة من ثلج، بينما كان صوت المياه ينساب من الحمّام حيث يغسل فهد وجهه ويدندن لحنًا قديمًا، لحنًا لم تسمعه منه من قبل.

ليلة العمارة

كان في الشقة التي سكنتها الحاجة صفية تسعة أبواب، وأربع عشرة قطة، وليلٌ لا ينام إلا قليلًا.

في ذلك اليوم، بعد أن غادرت لينا بوعاء الشوربة، جلست الحاجة صفية على الأريكة تمسّد قطتها البيضاء «فُلّة»، وتشاهد مسلسلًا قديمًا بصوت منخفض.

الساعة التاسعة، العاشرة، الحادية عشرة.

كان بوّاب العمارة، عم عبد الستار، قد نام على كرسيه يحتضن مذياعًا صغيرًا. وفي الطابق الثالث طفل يسعل في نومه، وفي الطابق الخامس زوجان يتشاجران بهمس.

بعد الساعة الواحدة بقليل توقف المصعد في الطابق الرابع، وفُتح بابه، وخرج منه ظلّ.

ظلّ نحيل في معطف طويل، يسير على أطراف أصابعه. وقف أمام باب الحاجة صفية وطرق الباب طرقتين خفيفتين، ثم ثالثة.

«مين؟» جاء صوتها من الداخل.

ردّ الظلّ بكلمة واحدة خافتة، لم تسمعها الجدران.

وسُمع صوت المفتاح يدور، ثم صوت الحاجة صفية دافئًا مرحبًا:

«آه! إنت؟ يا ألف مرحب! اتفضّل يا حبيبي، كنت لسه بقول إني قلقانة...»

وأُغلق الباب.

بعد ساعة ارتفع مواء قطة واحدة، حاد طويل مفاجئ، ثم تبعتها أخرى، ثم كلها، كأن كل القطط في العمارة قد شعرت بشيء في اللحظة نفسها.

استيقظ طفل الطابق الثالث وقال: «ماما، القطط تبكي.»

وفي الطابق الرابع، حيث الحاجة صفية، بقي الباب مغلقًا ومن تحته خيط رفيع من الضوء الأصفر، وكل شيء ساكنٌ إلا رائحة خفيفة تتسرب إلى الممر: رائحة عطر خشبي ثقيل، لا يمتّ بصلة لبيت عجوز، ولا لقطط، ولا لشوربة دافئة.

وعند الفجر، حين انطفأ الضوء تحت الباب، نزل الظلّ في المصعد نفسه، بلا عجلة، بلا ارتباك، كأنه عائد من زيارة عادية.

الرجل الذي كان يدوّن

كان رشدي عبد الحميد يؤمن بأن الدنيا كتاب مفتوح لمن يعرف كيف يقرأ.

لمدة ثلاثين عامًا عمل كاتبًا في أرشيف قسم الشرطة، يرتب الملفات ويحفظ أرقام اللوحات والتواريخ والأسماء. ولما تقاعد لم يترك عادته؛ كان يجلس كل مساء عند نافذته المطلة على الشارع، ومعه مفكرة وقلم أزرق وكوب شاي، ويدوّن:

«الثلاثاء: سيارة سوداء تقف أمام العمارة ثلاث مرات. لا شيء مريب.»

«الأربعاء: البقال يغلق متأخرًا. زوجة الجار تبكي.»

«الخميس: غريب يسأل عن الحاجة صفية.»

لم يكن فضوليًّا؛ كان يعتقد أن الذاكرة مسؤولية، وأن من يرى ولا يدوّن يفرّط في أمانة.

في مساء ذلك الأربعاء كان قد ذهب إلى الدقي ليزور زميلًا قديمًا من الأرشيف، وحين وقف عند ناصية الشارع ينتظر الحافلة في طريق العودة، رأى سيارة بيضاء تقف أمام عيادة الدكتور عادل، الطبيب الذي تعالجت عنده زوجته الراحلة سنوات.

سيارة هادئة أنيقة لا يظهر فيها أحد. ثم رأى رجلًا يخرج من باب العيادة وينزل ببطء، يمشي بلا تعجل ويحمل حقيبة. لم يرَ وجهه كاملًا، لكن في طريقة مشيه شيئًا مألوفًا، شيئًا قريبًا جدًّا من ذاكرته، لا يستطيع أن يضع عليه اسمًا.

كتب: «الأربعاء، ١١:٤٠: سيارة بيضاء أمام عيادة الدكتور عادل. رجل ينزل بسرعة، حقيبة. أظنني أعرفه.»

ثم وضع القلم.

في الصباح قرأ في الجريدة خبر موت الدكتور عادل، فارتجفت يده على الفنجان. لكن رشدي، كما كان كل الموظفين القدامى، لا يتهم أحدًا قبل أن يتأكد. ظل أيامًا يراجع ما رأى ويحاول أن يضع اسمًا على المشية التي لا يستطيع نسيانها، وقرر أن يحدّث الضابط الذي يعرفه في القسم حين تكتمل الصورة في رأسه.

ثم جاء مساء متأخر ودقّ زائر بابه. أشار إلى كرسيه المعتاد، وجلس الزائر وابتسم ابتسامة حنونة.

«أستاذ رشدي، هل لديك دقيقة؟»

«تفضّل... أنا أعرفك؟»

«أعتقد ذلك. أعتقد أنك رأيتني.»

تشنّج وجه رشدي بدهشة بطيئة، ولم يكن فيها خوف بعد.

«رأيتك!»

«في ليلة ما، من النافذة.»

وفي النافـــذة المقابلة، على مفكرة بقيت مفتوحة، ظـــلّ القلم الأزرق مستلقيًا في آخر سطر، كشاهد صغير على أن رجلًا عجوزًا كان يدوّن... حتى آخر لحظة.

الاتصال الأخير

في مكتبها الهادئ بحي الزمالك كانت الدكتورة منى تنظر إلى الموعد الملغي للمرة الثالثة:

«لينا — مُلغى بناءً على طلب الزوج.»

وضعت القلم. شيء ما في الأمر لا يطمئنها؛ كانت قد عالجت لينا ثلاث سنوات، وتعرف أن مرضاها لا يلغون مواعيدهم فجأة بلا تفسير.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بزميل قديم:

«دكتور عادل؟»

«منى، صباح الخير.»

«أهلًا يا منى. كنت سأتصل بك أنا أيضًا، لكنني كنت مشغولًا.»

«أريد أن أسألك عن مريضتك القديمة، لينا.»

سكت الطرف الآخر، ثم قال بصوت منخفض:

«لهذا كنت سأتصل بك.»

«ما الأمر؟»

«لا أريد أن أتكلم عبر الهاتف، لكنني أراجع ملفها القديم، وهناك أشياء لا تتطابق. لينا لم تعد تعاني من أي نوبة منذ أكثر من خمس سنوات، وأنا أسمع الآن أن لها «فجوات» متكررة.»

«لم أرَ هذا في فترة علاجي لها. كانت مستقرة جدًّا.»

«وهذا ما يقلقني؛ أي أن شيئًا تغيّر، وليس في داخلها.»

«ماذا تقصد؟»

«أقصد... دعيني أتأكد أولًا. سأحاول أن أراها هذا الأسبوع. وأنتِ يا منى، إن استطعتِ، حاولي أن تصلي إليها أيضًا.»

«حاولت، لكن زوجها يلغي المواعيد.»

صمت عادل مرة أخرى، أطول من الأولى.

«تعرفين أن أسوأ ما في مهنتنا أن ترى الخطر قبل أن تستطيع إثباته.»

«لا تقل هذا...»

«سأتصل بك بعد أن أرتب أوراقي.»

لم يتصل.

وفي صباح اليوم التالي قرأت منى خبر موته في الجريدة، وبقيت طويلًا تحدق في الصفحة ويدها على فمها.

الطبيب القديم

بعد وفاة الحاجة صفية صار البيت أكثر صمتًا.

صارت لينا تمشي على أطراف أصابعها كأن الجدران تصغي. أخفت الخاتم في علبة قديمة في قاع الخزانة، ولم تخبر فهد. لا تعرف لماذا، ربما لأن شيئًا فيها، شيئًا أصغر من الفكرة وأعمق من الغريزة، ظلّ يقول لها: «لا تقولي له الآن.»

في تلك الأيام رنّ هاتفها عصرًا برقم غير مسجّل، وجاءها صوت رجل كبير ثقيل الأنفاس:

«لينا؟ أنا الدكتور عادل الشرقاوي. هل تتذكرينني؟»

تجمّدت. كان طبيبها منذ المراهقة، قبل أن ينتقل إلى عيادته الصغيرة في الدقي؛ رجلًا طيبًا له عينان واسعتان، يهدّئ الخوف بصوت واحد.

«دكتور عادل؟ طبعًا أتذكرك.»

«لينا يا ابنتي، أريد أن أراكِ في أقرب وقت. اتصلت بكِ عدة مرات ولم أصل إليكِ. هناك شيء في ملفك القديم... شيء أخطأنا في فهمه. لا أريد أن أقوله عبر الهاتف.»

«أنا... أنا لم أتلقَّ أي اتصالات.»

سكت لحظة، ثم قال بحذر:

«حسنًا. لا تخبري أحدًا بمكالمتنا الآن. تعالي الليلة، الساعة التاسعة، وحدك.»

ثم أغلق الخط. وقفت لينا ويدها ترتجف حول الهاتف. لم يكن في صوته خوف مريض؛ كان خوفًا مدروسًا، خوف من يعرف ما يقوله.

لكن حين عاد فهد في المساء وجدها شاحبة، وفي يدها كوب شاي بارد.

«حبيبتي، ما بك؟»

كان ينبغي أن تقول الحقيقة، لكنه كان يرتدي ذلك الوجه الدافئ ويمسح على شعرها كما يفعل دائمًا، فخانها لسانها.

«لا شيء... صداع.»

«سأعدّ لك العشاء، ثم تنامين مبكرًا.»

عند الثامنة أعطاها قرصها وكوب الماء. شربت، وفي الثامنة والنصف أخذها نعاسٌ غليظ ثقيل كالرصاص. وفيما كانت تنزلق إلى العتمة، سمعت، أو ظنت أنها سمعت، خطوات تبتعد عند الباب، ومفتاحًا يدور.

وفي صباح اليوم التالي كانت الأخبار تملأ المنطقة: «الدكتور عادل الشرقاوي، الطبيب النفسي، وُجد ميتًا في عيادته.»

ومن مفكرة الاستقبال التي صودرت: «الأربعاء، التاسعة مساءً / لينا.»

التاسعة إلا خمس

في تلك الليلة رتب الدكتور عادل عيادته كما لم يرتبها منذ سنوات.

وضع ملف لينا على المكتب، بصفحاته الصفراء التي تحمل خطه القديم الذي كان واضحًا ثابتًا. جلس يقرؤه من جديد سطرًا سطرًا، وأمامه كوب شاي فقد حرارته.

«لم تعد تعاني من أي نوبة منذ أكثر من خمس سنوات.»

كانت تلك هي النقطة التي لا يستطيع أن يتجاوزها. إن كانت قد شُفيت، فمن أين تأتي هذه الفجوات التي يتحدث عنها الجميع؟

ومن أين تأتي أدوية لم يكتبها؟

أخرج من الدرج ورقة بيضاء وقلمه الحبر العتيق، وبدأ يكتب. كانت يده ترتجف قليلًا، لكن الكلمات خرجت واضحة:

«إلى لينا: إن قرأتِ هذه الرسالة، فلعلي لم أستطع أن أقول لك ما أريد وجهًا لوجه...»

توقف ونظر إلى الساعة: الثامنة وخمس وخمسون دقيقة.

كتب بضعة أسطر أخرى، ثم طوى الورقة وفتح كتابًا قديمًا على رف مكتبه، كان يقرأ منه لمرضاه في جلسات الاسترخاء، ويحتفظ به لأنه كان الكتاب الذي طلبته لينا أول مرة، حين كانت في الثامنة عشرة. وضع الرسالة بين صفحاته، ثم أعاد الكتاب إلى مكانه.

«إن لم أستطع»، قال لنفسه، «فستجدها ليلى.»

سمع صوت خطوات في الممر، ثم طرقتين خفيفتين على الباب، وثالثة.

ابتسم، وارتاح قلبه المتعب أخيرًا.

«لينا؟» نهض ببطء وسار إلى الباب. «كنت أخشى ألا تأتي.»

فتح!

وفي الممر، في الظل، كان الواقف أمامه يحمل ابتسامة خفيفة وحقيبة صغيرة ورائحة خشبية ثقيلة.

«تفضّل»، قال الدكتور عادل بحيرة لطيفة وهو يفتح الباب أوسع. «لم أتوقع... تفضّل.»

وأُغلق الباب.

الخيط الذي لا يُرى

وصلت الشرطة إلى بيتها عند الظهيرة.

لم يكن زهران بينهم هذه المرة؛ كان ضابطًا شابًّا اسمه سامح، مندفعًا قليلًا، يريد أن ينهي القضية بسرعة.

«أنتِ كنتِ مريضة عند الدكتور عادل؟»

«منذ طفولتي... لكنني لم أذهب إليه أمس.»

«مفكرته تقول إن لك موعدًا الساعة التاسعة.»

«أنا... لم أحجز.»

«وهل يوجد من يشهد أنكِ لم تخرجي؟»

التفتت إلى فهد، الذي كان واقفًا قرب النافذة يشدّ على قبضته بقلق متقن.

«كنتُ هنا يا حضرة الضابط حتى العاشرة، ثم اضطررت للخروج لأمر طارئ في العمل، ثم عدت بعد منتصف الليل فوجدتها نائمة. ولا أعرف إن كانت...»

وتوقف كأن الكلمات تؤلمه، ثم قال بصوت مكسور:

«إن كانت قد خرجت وعادت دون أن أشعر.»

نظرت إليه لينا مذهولة، ولم تجد بداخلها صوتًا يعترض، لأنها كانت تعلم في أعماقها أنها تفقد ساعات كاملة من حياتها.

ذهب الضابط ومعه ملاحظة صغيرة في دفتره: ثلاثة أشخاص، وكل منهم يعرف لينا؛ الجارة التي أحبتها، والطبيب الذي عالجها، و...

وفي المساء فتحت لينا الخزانة لتخرج علبة الخاتم؛ كان مكانها فارغًا.

صرخت في أعماقها صرخة بلا صوت، ثم سمعت فهد يقول من الغرفة المجاورة بهدوء:

«هل تبحثين عن شيء؟»

«لا... لا شيء.»

لكن الحقيقة كانت تتسرب إلى ذهنها ببطء مرعب: كل ضحية كانت تعرف شيئًا عنها أو عنهما؛ صفية رأت فهد يكتب، وعادل كان يحمل أمرًا في ملفها القديم، وهي، المصابة بفجوات الذاكرة، الحلقة الوحيدة الظاهرة.

* * *

على بعد ثلاثة شوارع، في مكتب صغير بمديرية الأمن، كان ملف جديد يعبر طاولة الملازم أول زهران: ملف من مركز الدقي عن جريمة قتل لطبيب نفسي، مصحوب بإشارة جانبية إلى تشابه محتمل مع حادثة جارة مسنّة في المعادي، والمشتبه بها ذاتها.

قرأ زهران الصفحة مرتين، ثم رفع عينيه إلى زميله وقال بهدوء:

«قل لي يا شريف... من يقتل شخصين ثم يترك اسمه على كل شيء؟»

الضابط المتسرّع

لم يكن الملازم سامح سيئًا، كان فقط متعطشًا إلى حل.

حين كُلّف بقضية صفية، ثم قضية الدكتور عادل، رأى فيهما فرصة ليثبت أنه ضابط يُحسب له حساب.

وحين ظهرت لينا في الصورة بجميع تلك الخيوط المتشابكة، لم يتردد.

«إنها هي»، قال لزملائه. «مريضة نفسية، تُصاب بفقدان الذاكرة، والجرائم متقاربة، والأدلة تتراكم.»

وفي مساء يوم الخميس جلس إلى صحفي صديق له في مقهى صغير، وقال «من باب الإحاطة» ما لا يجوز أن يُقال.

وفي صباح اليوم التالي كانت الجريدة على الأرصفة، وعنوانها بالخط العريض:

«القاتلة الصامتة: زوجة مهندس تثير الرعب في المعادي»

وتحته صورة لينا، مأخوذة من حفل قديم، تبتسم لشخص خارج الكادر.

ثم جاء الباقي سريعًا كالنار في العشب الجاف: صارت الجارات يخفضن أصواتهن حين تمرّ، وتجنبها البقال، وكتب أحدهم بالطباشير على باب العمارة كلمة واحدة... ووجدت لينا في صباح يوم علبة قمامة مقلوبة أمام بابها، وفي وسطها ورقة: «أنتِ وحش.»

«أريد أن أتحدث إلى الضابط!» قالت لفهد وهي تبكي. «أريد أن أشرح له.»

«لا يا حبيبتي، هذا بالضبط ما يريدونه. اتركي لي الأمر.»

وفي الأيام التالية ظهر فهد على التلفاز في مقابلة قصيرة، بوجه هادئ حزين:

«زوجتي إنسانة طيبة. هي مريضة، ولا ذنب لها. أنا أثق بالقضاء، وأرجو من الناس أن يرحموا امرأة لا تعرف نفسها.»

صفّق له المتفرجون في بيوتهم، وقالت نساء كثيرات: «ما أنبله!» ورفع آخرون حواجبهم: «ومن يتحمل هذا غيره؟»

لم يكن أحد يعلم أن كل جملة قالها كانت تضيف حجرًا جديدًا إلى سور يحيط بزوجته؛ فكل من يسمع «إنها لا تعرف نفسها» يفهم «إنها قد فعلت».

وفي مديرية الأمن قرأ زهران الجريدة بصمت، ثم اتصل بسامح:

«من أعطى الصحافة هذا؟»

«أنا... لقد...»

«أنت قتلت شيئًا مهمًّا اليوم يا سامح. ليست لينا؛ إنه شيء اسمه الاحتمال. أغلقت باب الاحتمال بيديك.»

«لكنها...»

«لا تكمل. وإن تحدثت إلى الصحافة مرة أخرى، سأحرص بنفسي على أن تقضي عامًا في الأرشيف.»

أغلق الهاتف، ونظر إلى عنوان الجريدة مرة أخرى، وأحسّ للمرة الأولى بأن الخطر الحقيقي لم يكن في الجريمة؛ كان في الكراهية التي بدأت تنتشر حول امرأة لم تُدَنْ بعد.

يوم في حياة سامح

بعد توبيخ زهران لم يستطع الملازم سامح النوم.

ذهب في اليوم التالي إلى الأرشيف، مكان لم يدخله منذ شهور؛ رائحته ورق قديم وغبار. جلس على كرسي خشبي وطلب ملف الدكتور عادل الشرقاوي كاملًا: مكالماته ومواعيده وسجلات عيادته.

«أريد أن أعرف ما الذي فاتني»، قال لنفسه.

ظل يقرأ ساعات، وفي مكالمات الأسبوعين الأخيرين من حياة الطبيب وجد شيئًا غريبًا: ثلاث مكالمات إلى هاتف لينا لا تُجاب، وفي كل مرة، بعد دقيقة واحدة، كان هناك اتصال آخر من رقم لينا إلى رقم مجهول، يستمر ثوانيَ قليلة فقط.

وقف سامح عن كرسيه وقلبه يدق.

«لو كانت لينا تتجاهل المكالمات، فلماذا تعاود الاتصال بالرقم نفسه؟»

عاد إلى سجلات شركة الاتصالات، فوجد أن رقم لينا لم يتصل بالطبيب أبدًا، لكن المكالمة الصادرة المسجلة من هاتفها حدثت على الورق

في اللحظة نفسها التي وصل فيها اتصال الطبيب؛ أي أن أحدًا كان يحمل هاتفها، ويرفض مكالمة الطبيب، ثم يتصل به ليسكته.

«أو أنه خطأ في السجل»، قال سامح بصوت منخفض.

لكنه لم يصدّق ما قاله.

كتب مذكرة قصيرة لا تتجاوز نصف صفحة، وأرسلها إلى زهران بلا تعليق:

«سيدي، أنا أخطأت، لكنني وجدت شيئًا قد ينفع. لا أطلب شيئًا، فقط أريد أن أصلح ما أفسدته.»

وبعد ساعة رنّ هاتفه؛ كان زهران.

«مذكرتك وصلتني.»

«آسف يا سيدي.»

«لا تعتذر. ابقَ على هذا الخيط. وأنت اليوم لست متسرعًا، أنت متأنٍّ، وهذا أفضل ما يمكن أن يكون.»

أغلق سامح الهاتف وجلس طويلًا، ولأول مرة منذ أسابيع لم يشعر أنه ينتصر، شعر أنه يتعلم.

الأصوات

لم يعد النوم ملاذًا.

صارت لينا تسمع أصواتًا في الليل، تبدأ كهمهمات بعيدة في الحمّام ثم تتحول إلى كلمات: «أنتِ فعلتِها. أنتِ التي فعلتِها.»

حاولت أن تقنع نفسها أنها من أعراض مرضها القديم، لكنها لاحظت شيئًا غريبًا: الأصوات لا تأتي إلا في الليالي التي يعدّ فيها فهد الشاي بنفسه، وكأن شيئًا في ذلك الدواء الحلو يوقظ كوابيسها.

أخبرته مرة بخجل:

«أظن أن الشاي... يجعلني أسوأ.»

ابتسم وقبّل جبهتها بحنان:

«هذا لأنكِ منهكة من القلق يا لينا. لنقلّل الشاي إذًا. سأحضر لكِ أعشابًا مهدّئة.»

وفي اليوم التالي كان في كوبها شيء أشد مرارة وأشد ثقلًا.

في تلك الأيام جاءت أمها إلى المكتبة التي تعمل فيها.

دخلت الحاجة سميّة بخطوات بطيئة، وجلست أمام ابنتها دون كلمة. نظرت إليها مدة طويلة، ثم قالت:

«عيناك مطفأتان يا لينا. أنا لا أعرف هذا الوجه.»

«ماما، أنا بخير...»

«لا، لستِ بخير. تعالي معي. ابقَي معي أيامًا. أريدك أن ترتاحي بعيدًا عنه.»

شعرت لينا بالدموع تحرق عينيها. أرادت أن ترتمي في حضن أمها، لكنّ الصوت الذي ازداد مؤخرًا في رأسها همس: «أنتِ خطر عليها. أنتِ خطر على كل من تحبين.»

«لا أستطيع يا ماما. أنا... الناس يموتون حولي. قد أكون أنا من...»

أمسكت الأم يدها بقبضة من حديد، حديد الأمهات الذي لا يلين:

«اسمعيني جيدًا. أنا ربيتك، أعرف هاتين اليدين منذ كانتا في حجم كفّي. ما كانت يدٌ تحمل هذا الحنان لتؤذي أحدًا، ولن أصدّق ذلك مهما قالوا لي.»

بكت لينا ولم تستطع أن ترد.

حين غادرت الأم وقفت عند باب المكتبة ونظرت إلى الخلف نظرة طويلة، وفي عينيها قرارٌ لم تفصح عنه: «إذا لم تستطع ابنتي أن تنقذ نفسها، فسأفعلها أنا.»

المفكرة التي لم تكتبها

عثرت لينا على المفكرة صدفة.

كانت تبحث عن حقيبة قديمة في الجزء العلوي من الخزانة، حين لمست يدها شيئًا صلبًا خلف الصناديق. جلبته إلى الضوء: مفكرة سوداء صغيرة، غلافها من الجلد، عليها بصمات الغبار.

فتحتها.

كانت الصفحات مكتوبة بخط ناعم أنيق، يشبه خط لينا في كل منحنى، تعرفه كما تعرف وجهها.

«١٢ مارس: رأيتها تنظر إليّ، ثم نظرت للنافذة. يجب أن أصمتها.»

«٣ أبريل: الطبيب يعرف. قد يخبر.»

«٢٠ مايو: هناك آخر. سيكون الأخير.»

وفي الهامش أسماء صغيرة: صفية، عادل، وبعدهما اسم ثالث: رشدي.

اهتزت أصابعها حتى كاد الكتاب يسقط.

«لا... لا... هذا ليس أنا. أنا لم أكتب هذا.»

لكن الخط خطها، والحروف منحنية بالطريقة التي تحبها، والنقاط مستديرة قليلًا كما علّمتها معلّمتها في الصغر.

اندفعت إلى الصالة، فوجدت فهد يقرأ جريدة ويرتشف قهوته على مهل.

«فهد! انظر! وجدت هذا في الخزانة. أنا لا أفهم... هذا خطي، لكنني لم أكتبه!»

وضع الجريدة جانبًا، وأخذ المفكرة، وقلّب الصفحات ببطء، وكانت ملامحه تتبدّل: الدهشة، ثم الرعب، ثم حزنٌ هائل بدا حقيقيًّا حتى للمصباح.

«يا إلهي... يا لينا...»

«فهد، قل شيئًا! أنا لم أفعل! لا أذكر! لا أذكر شيئًا!»

وضعها بين ذراعيه وهي تبكي بحرقة، ثم همس في أذنها بصوت حنون يقطر رحمة:

«اهدئي يا حبيبتي، اهدئي. أنا هنا. لن أدعهم يمسّونك. سأخفي هذه المفكرة في مكان آمن، لا أحد سيعرف.»

«لكن... لكن إن كنتُ أنا...»

«شششش. أنتِ مريضة لا مجرمة. سأعتني بكِ، وسنتجاوز هذا معًا.»

استسلمت لذراعيه كما تستسلم الغريقة لأول يد تمتد إليها، وأغمضت عينيها.

في اليوم التالي، حين سألته أين وضع المفكرة، قال:

«وضعتها في مكان آمن. ثقي بي.»

أومأت برأسها. وحين حاولت في الليل أن تتذكر إن كانت قد كتبت تلك الصفحات يومًا، لم يُجبها سوى الصمت. وفي الصمت لا يبقى أمام امرأة فقدت ثقتها بذاكرتها إلا سؤال واحد، تخشى أن تنطق به حتى لنفسها: إن كان الخط خطي... فمن أنا؟

بعد المفكرة

في تلك الليلة لم تنم لينا.

انتظرت حتى هدأ تنفس فهد بجانبها، ثم تسللت إلى المكتب الصغير، وأضاءت المصباح الخافت، وأخرجت دفتر مواعيدها القديم من الدرج، ذلك الذي يرافقها منذ سنوات.

فتحت صفحة قديمة وكتبت كلمة واحدة: «لينا».

ثم نظرت إليها. حاولت أن تتذكر شكل الحروف في المفكرة السوداء؛ كانت قد قرأت الاسم ثلاث مرات في ذلك الصباح، ولا تزال تراه: ألف الحرف الأخير يلتف قليلًا كما تفعل ألفها، لكن نقطتها...

أغمضت عينيها: «هل نقاطي هكذا؟»

كتبت الكلمة مرة أخرى، ومرة، ومرة، وصارت تحدّق في الصفحة بعينين تحترقان.

«لينا؟»

كان فهد واقفًا عند الباب في بيجامته، شعره مبعثر، يفرك عينيه.

«ماذا تفعلين يا حبيبتي؟»

«أحاول أن أتأكد.»

«من ماذا؟»

«من أن... الخط خطي.»

اقترب، ونظر إلى الورقة، ثم أغلق الدفتر بهدوء ووضعه على الرف العالي.

«لينا، توقفي. أنتِ تعذبين نفسك. المقارنة لن تنفعك. ماذا لو كان خطك مرة هكذا ومرة هكذا؟ أنتِ تعرفين كم يتغير الناس حين يتألمون.»

«لكنني...»

«هشش، تعالي. الفجر قريب.»

أخذها إلى السرير وبقي مستيقظًا بجانبها، يربّت على كتفها حتى غلبها النوم. وحين نامت نهض بهدوء، وفتح الدرج، وأخذ الدفتر الذي كان على الرف.

لم يضعه في مكانه.

هالة تبحث

لم تصبر هالة طويلًا.

بعد لقائها مع أم لينا قررت أن تفعل ما تفعله النساء حين يعجز الجميع: أن تبدأ بنفسها. ارتدت سترتها الجلدية وذهبت إلى عيادة الدكتور عادل في الدقي. كانت الشقة مغلقة بشريط أصفر من الشرطة، لكن في الجانب الآخر من الممر كانت ممرضته ليلى تفتح بابها لتأخذ الصحف.

«أنتِ... صديقة السيدة لينا؟»

«كيف عرفتِ؟»

«رأيتك معها مرة في عيد ميلاد الطبيب عادل. اجلسي يا ابنتي، أنا لا أنام منذ موته.»

جلست هالة في صالة ليلى الصغيرة. كانت المرأة ترتجف وتصبّ الشاي بيدين مضطربتين.

«الدكتور عادل كان قلقًا في أسابيعه الأخيرة. استرجع ملف لينا، كان يقرأه ليلًا ويهز رأسه. وفي إحدى المرات قال لي جملة لا أنساها: "يا ليلى... الأدوية التي تأخذها لا تشبه ما كتبته."»

«ماذا يعني هذا؟»

«لا أعرف. قال إن شخصًا يصرف أدوية باسمه وبتوقيعه، وهو لم يكتب لها شيئًا منذ سنوات. كان يريد أن يراها ويتأكد قبل أن يبلغ.»

أخفضت هالة عينيها، وشعرت بالبرد يزحف على ذراعيها.

«هل ذكر اسم أحد؟»

«لا. قال فقط: "أخشى أن الذي يعتني بها قريب جدًّا منها."»

خرجت هالة من العمارة والدنيا تدور بها. كانت مقتنعة بجملتين فقط:

أحدهم يتلاعب بدواء لينا، وأحدهم قريب جدًّا منها.

وكان في ذهنها عشرات الأسماء: ابن العم الذي يزورها، والجارة الفضولية، والطبيبة الجديدة، وأقاربها البعيدون، وفهد...

تجمّدت، ثم هزّت رأسها بقوة كأنها تطرد حشرة.

«لا، فهد؟ هو الوحيد الذي بقي، هو الوحيد الذي لم يتركها. أنا أتخيل! الخوف يجعلني ظالمة.»

وفي المساء اتصلت بلينا. رنّ الهاتف طويلًا، ثم جاءها صوت رجل هادئ:

«ألو؟ آه، هالة! كيف حالك؟»

«فهد! أريد لينا.»

«إنها نائمة يا هالة. الأطباء قالوا إنها بحاجة إلى راحة تامة. هل يمكن أن تتصلي في الصباح؟»

«حسنًا.»

«وهالة؟»

«نعم؟»

«لا أريد أن يكون كلامي ثقيلًا، لكنكِ تعرفين كم هي هشة. أرجوكِ، لا تقلقيها بأي أسئلة. هي تحبك، لكنها لا تتحمل.»

قالها بنبرة رقيقة جدًّا، نبرة رجل يخاف على زوجته.

أغلقت هالة الهاتف، ولم تدرك في تلك اللحظة أن القشعريرة التي مرت بها لم تكن ردّ فعل نحولًا؛ كانت غريزة صغيرة تحاول أن تنقذها، وقد وصلت متأخرة.

الخيانة العاطفية

«لا تصدّقي نفسك»

جاءت هالة في عصر يوم أحد.

لم تتصل ولم تستأذن، وقفت عند باب الشقة بوجه متعب وحقيبة صغيرة. وحين فتحت لينا الباب، قالت هالة وهي تنظر إليها:

«ماذا فعلوا بكِ؟»

«لا أحد فعل شيئًا. تفضلي.»

جلستا في الصالة. كانت هالة تتأمل الغرفة بعينين تعرفان صديقتها منذ الجامعة وتحسّان بأن البيت كله تغيّر: الستائر المسدلة نهارًا، والصمت الثقيل، وشحوب وجه لينا الذي صار ماءً راكدًا.

«سمعت عن الحاجة صفية وعن الدكتور عادل يا لينا. الناس يتحدثون...»

«أعرف.»

«يقولون إنك...»

«أعرف»، قاطعتها لينا بهدوء مرعب. «وربما كانوا على حق.»

حدّقت فيها هالة مذهولة.

«ماذا تقولين؟»

«لا أتذكر ليالي كاملة يا هالة. أجد أشياء ليست لي. أجد خطي في مفكرة لا أذكر أنني كتبتها. كيف أعرف أنني بريئة وأنا لا أثق بما في رأسي؟»

«تعالي معي، أرجوكِ. اتركي هذا البيت. أنا لا أحب هذا...»

«فهد يعتني بي.»

«فهد؟» قالت هالة وقد ضاق صدرها. «لينا، هل تعلمين أنه أرسل لي رسالة الأسبوع الماضي يطلب مني ألّا أتصل بك لأنني "أرهقك"؟»

نظرت لينا إليها طويلًا. كانت هذه الجملة تستحق أن تهز شيئًا في رأسها، لكن الصوت الهادئ الذي زرعه فهد فيها شهرًا بعد شهر حرّك كلمات جاهزة على لسانها:

«ربما كان محقًّا. أنا أرهقك وأرهق الجميع.»

وقفت هالة ودموعها تلمع.

«أنا هنا إن احتجتِني، حين تتذكرين من أنتِ.»

وحين أغلقت الباب خلفها، لم تلحظ لينا أن هاتفها على الطاولة كان قد أضاء برسالة جديدة من رقم أمها: «رنّي عليّ الآن». ولم تلحظ أن الرسالة اختفت من الشاشة بعد ثوانٍ، كأن يدًا حذفتها.

* * *

في المساء جلس فهد بجانبها وقال:

«سأسافر بعد غد يا حبيبتي. ثلاثة أيام فقط؛ مشروع في الإسكندرية لا أستطيع تأجيله. لا أريد أن أتركك، لكن لا بد.»

«ثلاثة أيام؟ وحدي؟»

«سأتصل بك كل ليلة. أريدك أن تبقي في البيت، لا تفتحي لأحد، ولا تخرجي إلا للضرورة. وإذا احتجتِ شيئًا فمفاتيحك في مكانها.»

أمسك يديها وقال بنبرة أقرب إلى الرجاء:

«لينا، هذا العالم أقسى مما تظنين، والناس لا يفهمون مرضك. أنا الوحيد الذي يفهم. فلا تصدّقي أحدًا غيري، ولا... ولا حتى نفسك. إن بدت لك أمور غريبة، اتصلي بي أولًا قبل أي قرار.»

أومأت لينا ببطء موافقةً على كلامه، وكأن كل ما يربطها بالدنيا قد اجتمع في ذلك الكف الدافئ.

ولم تدرك أن العزلة التي ظنتها حماية كانت قد أحكمت أقفالها.

الساعات الثلاث

(الليلة التي سبقت الاعتقال)

الساعة التاسعة وعشر دقائق

رنّ الهاتف على الطاولة الصغيرة، فأسرعت لينا إليه كما تسرع كل مساء.

«حبيبتي»، جاءها صوت فهد دافئًا متعبًا قليلًا، من مكان بعيد تتخلله ضوضاء. «وصلت للتوّ إلى الفندق. كيف حالك؟»

«بخير. اشتقتُ إليك.»

«وأنا أكثر. هل أخذتِ أقراصك؟»

«في الثامنة، كعادتي.»

«جيد. وتركتُ لك الشاي جاهزًا في الترمس. ألم تري؟ اشربي كوبًا قبل النوم، سيهدئك.»

«حاضر.»

«لا تفتحي لأحد، ولا تخرجي غدًا. أتصل بك من الصباح.»

وأرسل لها قبلة صوتية قصيرة، ثم صمت الخط.

وقفت لينا لحظة تنظر إلى الهاتف. كان في صوته شيء غريب، شيء لم تستطع تسميته. ثم قالت لنفسها: «هو تعبان فقط...» وسارت إلى المطبخ، وصبّت من الترمس كوبًا من الشاي الدافئ، وجلست على الأريكة.

شربته على مهل. كان طعمه حلوًا، أحلى من المعتاد، وفي نهايته مرارة خفيفة تعلق في الحلق.

«ربما أخطأتُ في الأعشاب»، فكّرت، وأغمضت عينيها لحظة.

* * *

الساعة العاشرة وأربعون دقيقة

ضوء خافت. صوت سيارة في الأسفل. حلق جاف يحترق. رأس يدور كأنه يسبح في ماء ثقيل.

فتحت عينيها.

كانت واقفة.

لا تعرف كيف! لا تذكر أنها نهضت. كانت في الصالة عند الباب، والمعطف الرمادي على كتفيها رطبًا كأنه خارج للتوّ من المطر، ويدها اليمنى على مقبض الباب نصف مفتوح.

«متى لبست المعطف؟ متى قمتُ؟»

ثم جاءتها صور خاطفة متقطعة كشظايا مرآة مكسورة:

ضوء مصعد يُضاء. رائحة عطر، عطر خشبي ثقيل لاذع قليلًا، تعرفه من مكان لا تتذكره. بقعة سوداء تتحرك. وصوت... همس بعيد، كأنه يأتي من تحت الماء:

«هشش... لا بأس. أنتِ في أمان.»

وضعت يدها على فمها، كانت ترتجف.

«فهد؟» همست إلى العتمة.

لم يجبها أحد. أغلقت الباب بيد مرتجفة، وأدارت المفتاح مرتين، وسحبت المعطف عن كتفيها وألقته على الأرض كأنه يحرقها، ثم زحفت إلى الأريكة وانكمشت على نفسها، ورأسها بين ركبتيها.

«لا أستطيع أن أتذكر»، كررت ذلك. «أنا لا أستطيع أن أتذكر.»

وغلبها النعاس مرة أخرى كسقوط في بئر.

* * *

الساعة الثانية عشرة والنصف

استيقظت على الأريكة، والمعطف على الأرض، والشاي بارد، والشقة غارقة في صمت من يحبس سرًّا ثقيلًا في صدره.

لم تعــرف أن في تلك اللحظــة نفسها، في العمــارة المقابلة، كانت امرأة بمعطف رمادي تعبر المدخل أمام كاميرا قديمة، رأسها مطرق، ويدها اليمنى ترفع خصلة من شعرها.

* * *

في السابعة صباحًا من اليوم التالي كان ثلاثة رجال على بابها. وقصتها بعد ذلك تُروى بصوتين:

بصوتها هي: ابتسامة مرتبكة، وضحكة قصيرة، و«أنا لا أفهم».

وبصوت الملازم أول زهران:

وقف في الصالة يتأمل المكان وهو يتحدث إليها: أنفاسها المتسارعة، ويدها اليسرى، وكانت اليسرى بالفعل هي التي حملت فنجان الشاي بتردد، وعيناها اللتان تبحثان في الفراغ عن كلمة لا تعثر عليها. ولاحظ المعطف الرمادي المرمي على الأرض رطبًا، وفي جيبه علبة أقراص فارغة.

بعد نصف ساعة كان رجاله ينتشرون في الشقة بقفازاتهم البيضاء.

«ابدأوا بالمطبخ»، قال. «كل ما يُشرب، كل ما يُؤكل: العلب، الأكواب، الترمس!»

وقفت لينا في الصالة تراقب بلا حراك. وحين رأت الضابط يمسك الترمس الفضي بقفازه ويضعه في كيس بلاستيكي، شعرت بشيء يلسعها: صورة فهد يصبّ الشاي وهو يبتسم ويقول بصوته: «اشربي يا حبيبتي، سيهدئك.»

«هذا... هذا الترمس»، قالت.

«ما به؟» التفت زهران بسرعة.

«أنا لا أحضّر الشاي فيه ولا أغسله. فهد هو من يفعل.»

توقف الضابط عن الحركة. نظر زهران إلى لينا نظرة طويلة، ثم قال بهدوء:

«سجّلوا هذا. ضعوه في كيس منفصل، وحافظوا على البصمات.»

ثم التفت إليها:

«شكرًا. هذه ليست معلومة صغيرة.»

لم تفهم لينا لماذا شكرها، لكنها لاحظت أن يديها ترتجفان أقل من المعتاد.

* * *

وبينما كان زهران يتفقد غرفة النوم، جاءه الرقيب بمفكرة سوداء صغيرة من الجلد وجدها في درج المنضدة.

«وجدناها يا باشا.»

فتحها زهران. الأسماء: صفية، عادل، رشدي. التواريخ. التهديد المباشر في السطور: «هناك آخر. سيكون الأخير.»

قرأ الصفحات ببطء. كان الخط أنيقًا منتظمًا، مائلًا قليلًا إلى اليمين، ولا شيء فيها يدل على جنون؛ كل شيء فيها يدل على تخطيط.

ورفع عينيه إلى المرأة الجالسة على الأريكة في الصالة، التي تضمّ يديها الفارغتين في حجرها كطفلة تنتظر عقابًا لا تعرف سببه، وهمس لنفسه: «امرأة بهذا الخط لا ترتجف بهذه الطريقة.»

وأحسّ في تلك اللحظة بالذات بالشك الأول يتحرك في صدره كحجر صغير في حذاء. لم يكن شكًّا في لينا، بل كان شكًّا في سهولة كل شيء.

* * *

بعد ثلاث ساعات وصل فهد إلى مبنى المديرية.

كان هابطًا من سيارة أجرة، شعره منكوش، وقميصه مجعد، وعيناه حمراوان كمن لم ينم. اندفع إلى الشرطي عند البوابة:

«زوجتي! قالوا إنهم أخذوا زوجتي! أريد أن أراها!»

وحين جلس أمام زهران في غرفة صغيرة، انهار وهو يتحدث. حكى عن ماضيها، وعن الأدوية، وعن الأيام التي كانت تنسى فيها كل شيء، وعن الحاجة صفية التي كانت تحبها، وعن الأرق الذي كان ينتابها.

«كنت أخشى هذا اليوم يا حضرة الضابط»، قال وهو يمسح عينيه. «كنت أحاول أن أحميها منه.»

وأخرج ملفًا من حقيبته فيه تقارير طبية قديمة وأوراق علاج، رتبها أمام زهران بعناية من يعرف كيف يرتب الأشياء.

«أنا أحبها. أرجوك، إن كانت قد فعلت شيئًا فهي لا تدري. هي مريضة. أرجوك، ساعدوها.»

كان مشهدًا يحرّك الصخر، وكان زهران يصغي ويحدّق ويسجّل كل شيء بهدوء.

ثم سأله ببساطة: «أين كنتَ ليلة أمس يا أستاذ فهد؟»

«في الإسكندرية طبعًا، لمشروع عمل. تستطيع التحقق من الشركة.»

«سأفعل بالتأكيد. أي شيء يفيد.»

وحين خرج فهد، التفت الرقيب وقال بإعجاب:

«راجل نادر يا باشا. قليل من يقف بجانب زوجته هكذا.»

لم يرد زهران. كان ينظر إلى الباب الذي غادر منه فهد. كان قد لاحظ شيئًا صغيرًا في الملف الطبي الذي سلّمه فهد له: ترتيب الأوراق كان مثاليًّا؛ لا ورقة مقلوبة، لا حاشية مشطوبة. ليس ملف إنسان لا يهتم بالتفاصيل لأن الحياة أربكته، بل ملف إنسان يعدّ لتقديمه.

ثم قال فجأة:

«يا شريف، ملف الطبيب النفسي. أخبرني: متى طلب الدكتور عادل ملف لينا القديم من أرشيف المستشفى؟»

«قبل وفاته بأسبوع. لماذا؟»

«لأن رجلًا يسترجع ملفًا قديمًا قبل أسبوع من موته لا يفعل ذلك لأن مريضته خطيرة، بل لأنه وجد شيئًا.»

«وماذا وجد؟»

«هذا ما سنعرفه حين نعرف لماذا مات.»

غرفة التحقيق

كانت الغرفة بيضاء ضيقة، ومصباحها الأصفر يرتجف.

جلست لينا على الكرسي المعدني، تضم كفيها إلى صدرها. دخل زهران ومعه كوب شاي، وضعه أمامها دون كلمة.

«لن أشرب»، همست. «كل شاي أشربه يُضيّع مني الوقت.»

ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة وسحب الكوب:

«كما تشائين. لن أجبرك على شيء.»

جلس. كان يتحدث بصوت منخفض، وكأنه يخشى أن يفزعها:

«أريدك أن تحكي لي يا لينا. ليس عن الجرائم، بل عن حياتك؛ من أول النهار اليوم لآخره.»

بدأت بتردد تحكي: القهوة، والمكتبة، والأقراص، وفهد الذي يعدّ كل شيء. وزهران يدوّن ويسأل أسئلة بسيطة بدت غير ذات صلة:

«من يعطيكِ أقراصك؟»

«أنا... أنا آخذها بنفسي.»

«وكوب الماء؟»

«فهد يحضره.»

«والشاي؟»

«فهد أيضًا.»

توقف قلمه لحظة، ولم يُظهر شيئًا.

«لينا، حين تستيقظين بعد فقدان الذاكرة، هل تشعرين بدوار؟ بجفاف في الفم؟ بثقل في الأطراف؟»

«نعم... دائمًا. كيف عرفت؟»

«أنا لا أعرف. أسأل فقط.»

صمتت، ثم رفعت رأسها فجأة بعينين واسعتين:

«أنا أخاف أن أكون قد قتلتهم. أخاف أن يكون في داخلي وحش يخرج حين أنام. هل... هل أنا مجنونة يا سيدي؟»

نظر إليها زهران طويلًا. كان في الغرفة هدوء غريب، ذلك الهدوء الذي يسبق قرارًا.

«لا أعرف بعد إن كنتِ ارتكبتِ شيئًا يا لينا، وأعترف بأنني لا أفترض براءتك. لكنني أعرف شيئًا واحدًا، بعد عشرين عامًا من

الاستجواب: المجرم الذي لا يتذكر يقاتل بالإنكار. أما أنتِ... فتقاتلين بالسؤال. وهذا فرق كبير.»

كانت دمعة صامتة تسيل على وجنتها. أخذ منديلًا من جيبه ومدّه إليها.

وحين خرج وجد شريف ينتظره في الممر.

«اعترفت؟»

«لا، لكنها أخبرتني شيئًا أهم.»

«ماذا؟»

«أن كل ما تشربه وتبتلعه يمرّ من يد واحدة.»

المحامية

في ظُهر اليوم نفسه دخلت غرفة الحجز امرأة في الأربعين، ترتدي بدلة داكنة وتحمل ملفًا سميكًا.

«أنا نهلة صبري من مكتب المعونة القانونية. كلّفوني بقضيتك.»

جلست أمام لينا وفتحت الملف.

«اسمعيني جيدًا. لا تقولي شيئًا من دون حضوري، ولا تعترفي بأي شيء، ولا تفترضي أن الضابط صديقك حتى لو بدا لطيفًا.»

«لكنه لطيف.»

«هذا ما يجعل الأمر أخطر»، ردّت نهلة بابتسامة قصيرة. «الضباط اللطفاء أكثر فاعلية. أريدك أن تكوني حذرة.»

«أنا لا أخفي شيئًا.»

«ولا أحد يقول إنك تخفين. لكنك مريضة، مرهقة، مضطربة، وأي جملة تقولينها قد تتحول إلى أداة ضدك. أنا لا أطلب منك أن تكذبي، أطلب فقط أن تصمتي حين لا أكون هنا.»

نظرت لينا إلى يديها، ثم قالت بصوت منخفض:

«لكنني أريد أن أعرف. أريد أن أعرف ما الذي حدث، وإن كان ذلك سيؤذيني.»

رفعت نهلة عينيها عن الملف؛ كان في وجهها ليونة جديدة.

«هذا كلام مؤثر، لكنه ليس قرارًا قانونيًّا حكيمًا.»

«وليس قرارًا قانونيًّا حكيمًا أن أعيش كل عمري لا أعرف.»

سكتت المحامية، ثم أغلقت الملف ببطء.

«حسنًا. سأحضر كل جلسة، ولن أسمح لأحد بأن يخدعك. لكن لو أردتِ أن تتكلمي، فتكلمي بوعي.»

«سأفعل.»

«ولينا؟»

«نعم؟»

«أنا أرى في عينيك شيئًا لا أراه عند من يرتكبون جرائم. لا أدري ما هو، لكنني سأبحث عنه.»

اختبار الخط

في صباح اليوم التالي للاستجواب وضع زهران أمام لينا ورقة بيضاء وقلمًا.

«أريد أن أطلب منك شيئًا غريبًا. اكتبي الجملة التي سأمليها عليك.»

«أي جملة؟»

«"أنا أعرف. الليلة، الخطة قد بدأت."»

ارتجف جفنها.

«هذه جملة من المفكرة.»

«نعم. اكتبيها فقط.»

أمسكت القلم بيدها اليسرى وحركته ببطء، وبعد كل حرف كانت تتوقف لحظة كأنها تتأكد. خرج خطها مائلًا إلى اليسار قليلًا، حروفه متداخلة، بعضها يعلو بعضًا، والنقاط تتأخر عن مكانها.

وضع زهران الورقة بجانب صفحة المفكرة وصمت طويلًا.

«لكنها... تشبه»، قالت لينا بصوت متقطع. «أنا أعرف الحروف... هذه حروفي.»

«تشبه»، وافقها. «لكنها لا تتطابق. أنتِ تكتبين الألف مرتدّة إلى الوراء قليلًا، وتتركين النقطة تتأخر. صاحب المفكرة كتب نقاطه مستقيمة بلا أي تأخير، كأنه نسخ أشكالًا... لا كأنه تعوّد على حركة كتابة معينة.»

«هل تقول إن أحدًا قلّدني؟»

«لا أقول شيئًا بعد. أقول فقط إن اليد تكتب ما تعرفه لا ما تحفظه.»

نظرت إلى الورقة طويلًا، ثم رفعت رأسها وفي عينيها بريق جديد صغير:

«إذن لعلني... لم أكتب شيئًا.»

«لا أعرف يا لينا، لكنني لا أستطيع أن أستبعد ذلك.»

وللمرة الأولى منذ أسابيع شعرت لينا بأن الأرض تحتها لا تميل.

ساعة خارج الحساب

في الثانيـة ظهـراً جلس زهـران في غرفـة صـغيرة، حوله شاشـتان ومجموعة أوراق، وبجانبه شريف يحتسي قهوته الباردة.

«دعنا نرتّب الحقائق يا شريف، بلا استنتاجات.»

«الطبيب الشرعي يقول إن رشدي عبد الحميد قُتل بين التاسعة والنصـف والعاشرة وخمس وأربعين دقيقة.»

«وكاميرا المدخل؟»

«صورة لينا، أو من تشبهها، تدخل العمارة في الحادية عشرة والنصف.»

«بعد الوفاة بخمس وأربعين دقيقـة على الأقل؛ أي أنهـا دخلت بعـد أن مات. فلماذا؟ هل عادت إلى مسرح الجريمة؟ هل أخذت شيئًا؟ أم...»

«أم لم تكن هي.»

«لا أقول هذا. أقول: لا أعرف. أعرض الاحتمالات.»

أعاد التسجيل على الشاشة: شخص بمعطف رمادي، رأسـه مطـرق، يعـبر المدخل بسرعة، يرفع يده اليمنى مرة ليعدّل شعره قرب الكاميرا.

«قِف»، قال زهران.

توقف الفيديو.

«اليد اليمنى. لينا تستعمل اليد اليسرى. رأيتها تحمل الشاي، وتمسح دمعتها، وتشير بها وهي تتحدث.»

«قد تكون تعمدت...»

«وقد لا تكون. ضع هذا جانبًا. أخبرني عن هاتفها.»

«إشارة الهاتف لم تغادر البيت حتى الحادية عشرة وعشرين دقيقة، ثم انقطعت.»

«انقطعت؟»

«الهاتف كان مغلقًا بين الحادية عشرة والعشرين والثانية عشرة وربع.»

«مغلق، أو خُلعت منه الشريحة. من يغلق هاتفه وهو ذاهب لارتكاب جريمة؟ أو من يغلق هاتف شخص آخر؟»

سكت شريف.

«وسِجلّ المصعد في العمارة المقابلة؟»

«يُظهر أن المصعد صعد من الطابق الأرضي إلى الخامس عند الحادية عشرة ونصف وثلاث دقائق بالضبط (١١:٣٣).»

«بعد أن سجلت الكاميرا الصورة، بتوقيت لا بأس به. لكن هناك شيئًا يزعجني: من يعرف إلى هذا الحد الدقة في التوقيتات؟ لو كانت لينا تخطط للجريمة، فلماذا تظهر أمام كاميرا واضحة، مرتديةً وشاحًا يحمل بصماتها؟»

«لأنها مريضة...»

«المرضى لا يُجيدون الحساب يا شريف. من فعل هذا يجيد الحساب.»

تناول زهران المفكرة وقلّب صفحاتها تحت المصباح الصغير:

«وهذا الخط: جميل جدًّا، منتظم جدًّا. أتعرف ما الذي يقلقني فيه؟»

«لا يوجد تردد واحد. إنسان يكتب خطته الشخصية يتردد، يشطب، يكرر. أما هنا... فكل شيء نظيف، كأنه كُتب للقراءة.»

«للقراءة؟ من سيقرأ؟»

رفع زهران عينيه ببطء وقال بصوت منخفض:

«من سيجدها.»

* * *

في المساء سمح زهران لفهد بزيارة قصيرة.

وقف خلف الزجاج يراقب. جلس فهد أمام لينا، أمسك يديها، وقال لها شيئًا لم يُسمع. كان وجهه مثقلًا بالحزن، وعيناه ملتصقتين بعينيها.

ورأى زهران، وهو يعدّ أنفاسه، لحظة صغيرة جدًّا، نصف ثانية: حين لمس فهد يدها، تراجعت أصابع لينا إلى الوراء. تراجعت قليلًا فقط، لا أكثر.

ثم عادت إلى مكانها، وابتسمت، وبكت.

لم يقل زهران شيئًا. دوّن سطرًا واحدًا في دفتره الصغير وأغلقه.

كان السطر: «لا استنتاج بعد. أن أراجع كل ما مرّ عبر يد واحدة... وكل ما غاب عن عين الكاميرا.»

الرجل الذي أخطأ مرة

لم يكن زهران يحكي عن نفسه إلا نادرًا.

لكن في تلك الليلة، بعد أن غادر المكتب، جلس في سيارته أمام مبنى المديرية، وأخرج من درج السيارة صورة قديمة مطوية: رجل في الأربعين، ضعيف، حائر العينين.

كان اسمه سليم.

قبل أحد عشر عامًا كان زهران ضابطًا شابًّا حديث الخبرة، اندفاعه أكبر من صبره. وقعت جريمة في حيّ شعبي؛ امرأة قُتلت خنقًا، وكان الجميع يعرف أن في الحي رجلًا ذا اضطراب عقلي، يتحدث وحده ويتجول ليلًا، اسمه سليم.

«هو»، قال الجميع.

«هو»، قال رؤساؤه.

«هو»، قال زهران.

اعترف سليم بعد ليلتين من الاستجواب. اعترف بصوت مرتجف، بأسماء لا تتطابق، وبتفاصيل أخطأ فيها مرتين. لكن الاعتراف جاء، وكان يكفي.

حُكم عليه بخمسة عشر عامًا.

وبعد ثلاث سنوات أخرى قُبض على الفاعل الحقيقي في قضية أخرى، ووجدوا في بيته ما يربطه بالجريمة الأولى.

لم يبكِ زهران حين علم، ولم يصرخ. ذهب إلى السجن بنفسه، وجلس أمام سليم في غرفة الزيارة، وقال بلا مقدمات:

«أنا أخطأت.»

نظر إليه سليم طويلًا. كانت عيناه فارغتين من الغضب، وهذا ما كان أشد وطأة.

«أنا كنت أعرف أنني بريء»، قال بصوت هادئ، «لكنني لم أعد أثق بأنني أعرف.»

خرج سليم بالعفو، ومات بعد شهور في ملجأ، وحيدًا، دون أن يستعيد شيئًا مما فقده.

ومنذ ذلك اليوم كان لزهران قاعدة لا يخرقها:

«لا تقل إن أحدًا مجنون حتى تتأكد أنه ليس مظلومًا، ولا تقل إن أحدًا مظلوم حتى تتأكد أنه ليس خطيرًا. وبين المعنيين، اقرأ كل شيء.»

أعاد الصورة إلى الدرج، ورفع عينيه إلى الطابق الثالث في المبنى، حيث ضوء صغير ينير غرفة الحجز.

«لن يتكرر هذا مرة أخرى»، قال بصوت لا يسمعه أحد. «أعدك يا سليم.»

جنازة رشدي

أقيمت الجنازة في مسجد صغير بالمعادي، في ظهيرة يوم عادي.

كان العدد قليلًا: بعض الجيران، وزملاء قدامى من الأرشيف، وابنته الوحيدة سعاد، امرأة في الأربعين ترتدي السواد وتحمل وجهًا متعبًا ورثته من أبيها.

وقف زهران في الصف الأخير يراقب. كان يعرف أن الجنازات مكتبة مفتوحة لمن يقرأ الوجوه.

رأى البوّاب عبد الستار يبكي بصمت، ورأى الجارة تهاني تمسح عينيها بمنديل مطرّز، ورأى رجلًا أنيقًا يقف بعيدًا عند الباب الخلفي، بقميص أسود ونظارة داكنة، ينحني قليلًا نحو سعاد بعد انتهاء الصلاة.

«كان رجلًا طيبًا»، قال بصوت منخفض مؤثر. «العمارة كلها ستفتقده.»

«شكرًا»، قالت سعاد بصوت مبحوح. «هل كنت صديقه؟»

«جاره من العمارة المقابلة. حزين جدًّا لما جرى. وأنا أعتذر عن هذه الأيام الصعبة، فزوجتي... كما تعلمين.»

«آه، أنت زوج...»

«نعم، لكنني لن أتحدث في هذا الآن. عزائي الحار يا سيدتي.»

ثم مضى بخطوات هادئة نحو الباب، وغاب بين الوجوه.

تابعه زهران بعينيه. لم يكن في المشهد شيء غريب: رجل يقدّم العزاء لابنة الضحية، حتى لو كان زوج المتهمة. ومع ذلك، شيء في الطريقة التي لم يلتفت بها إلى الخلف جعل زهران يدوّن في ذهنه: «من يعزّي بهذه السرعة ويغادر بهذه السرعة؟»

بعد الدفن اقترب من سعاد:

«سيدتي، أنا الملازم أول زهران. أعتذر عن الإزعاج.»

«لا بأس. أريد أن أعرف من فعل هذا بأبي.»

«أنا أحاول. هل لاحظتِ شيئًا غريبًا في الأيام الأخيرة؟»

«أبي كان يتغير يا حضرة الضابط. أسبوعًا كاملًا وهو يقول إنه رأى شيئًا في الدقي، شيئًا يجب أن يتأكد منه قبل أن يخبر أحدًا. قال إنه لا يريد أن يتهم إنسانًا ظلمًا.»

«ولم يقل ماذا؟»

«لا. كان يقول: "الحقيقة تحتاج صبرًا." وكان يضحك. ثم مات قبل أن ينتهي صبره.»

«أنا لم أجرؤ على فتح شقته بعد. ما زالت كما تركها.»

قال زهران: «سأطلب تفتيشًا ثانيًا. قد يكون لديه ما أراد أن يقوله ولم يستطع.»

«افعل. أبي كان يدوّن كل شيء. أنا أعرف أنه ترك لنا شيئًا.»

شدّ زهران على يدها:

«وأعدك أنني لن أنساه.»

الجلسة الثانية

في صباح الثلاثاء طلب زهران لينا مرة أخرى. هذه المرة لم يكن في الغرفة البيضاء ولا في المكتب، بل في غرفة صغيرة فيها نافذة تدخل منها شمس خجولة.

«اليوم لن أسألك عن الجرائم. أريد فقط أن تحكي لي عن أول ما تذكرتيه.»

أخبرته عن العطر والكوب والدندنة. كانت تحكي بتردد، كأنها تلتقط خيوطًا من هواء.

«هل تستطيعين أن تدندني اللحن؟»

«لا أعرف...»

«جرّبي.»

أغمضت عينيها، وبعد صمت طويل خرج من فمها صوت خافت: نغمة من خمس أو ست نغمات، حنونة وبسيطة، ينحدر في آخرها تنهيدة.

سجّله زهران على جهاز صغير، ولم يعلق.

«هل تعرفين اسم هذه الأغنية؟»

«لا، لكنني سمعتها كثيرًا... في البيت، أحيانًا في الليل.»

«ومن كان يدندن بها؟»

فتحت عينيها فجأة، وبدا على وجهها ارتباك حقيقي وخوف مبهم لا تعرف مصدره:

«لا أعرف. لا أريد أن أقول شيئًا ظلمًا.»

«قولي ما تتذكرينه فقط. لا شيء غير ذلك.»

«كان صوتًا رجاليًّا هادئًا. لم أرَ وجهه.»

سكتت لحظة، ثم أضافت بهمس:

«لكنني أعرفه. أعرفه جيدًا.»

لم يُطل زهران الجلسة. شكرها، وطلب من الشرطي أن يعيدها إلى غرفتها، وأرسل التسجيل إلى مختبر الصوت بلا طلب محدد، فقط «للأرشفة».

وفي الممر، بينما كان يعود إلى مكتبه، التقى فهد الذي جاء لتسليم بعض الأوراق. كان يسير بخفة، يدندن لنفسه بصوت منخفض، كما يفعل من تعوّد أن يملأ الفراغ بالموسيقى.

توقف زهران.

لم يلتفت، لم يظهر أي رد فعل، واستمر في المشي، ووجهه كما هو، وفي عقله دفتر صغير يكتب فيه بحبر لا يراه أحد:

«الأذن لا تكذب أحيانًا... لكنها قد تخطئ. أنتظر المختبر.»

هالة والليل

في الثامنة والنصف مساءً كانت هالة تغادر مكتبها في وسط البلد وتسير نحو موقف السيارات الأرضي، وفي ذهنها قائمة أسئلة كتبتها لزهران.

كانت قد اتصلت به في الصباح وأخبرته عن ليلى وعن توقيع الدكتور عادل المزوّر. قال لها بصوت مهذب: «سأرسل من يأخذ أقوالك غدًا. ولا تذهبي إلى أي مكان وحدك.»

لم تأخذ التحذير بجدية؛ كانت مشغولة بما تخطط لقوله.

في الطابق الأرضي من الموقف كان الضوء خافتًا، وصوت خطواتها يرتد بين الأعمدة الإسمنتية. وصلت إلى سيارتها وأخرجت المفاتيح.

سمعت خطوات أخرى.

التفتت: لا أحد. فقط ظل طويل يمتد على الأرض خلف عمود بعيد.

«من هناك؟»

لم يرد أحد.

تحرك الظل بهدوء، بلا تعجل.

أسرعت هالة نحو الباب، لكن يدًا قوية أمسكت بكتفها من الخلف ودفعتها إلى جدار عمود خرساني. اصطدم رأسها بالإسمنت، ودارت الدنيا بها. ورأت وجهًا مغطى بقبعة سوداء، وعينين لا تظهران، ويدًا ترفع ياقة معطفها، وشيئًا رفيعًا يلمع.

«لا تُكثري الأسئلة»، همس صوت منخفض جدًّا، رجالي، رقيق إلى حد غريب.

ثم رنّ صوت صفارة، صفارة حارس الموقف: «إيه ده؟ مين هناك؟»

اختفى الظل، وسُمعت خطواته تنساب بسرعة نحو مخرج الطوارئ. جلست هالة على الأرض، تضع يدها على جبهتها، تحاول أن تلتقط أنفاسها.

وقبل أن تغيب عن الوعي وصلتها رائحة؛ رائحة خشبية ثقيلة تعرفها. تعرف أنها شمتها مرة، في مكان قريب، ولا تستطيع أن تعرف أين.

* * *

في المستشفى زارها زهران بعد ساعات، ووقف بجانب سريرها.

«تعرضتِ لمحاولة اعتداء، لكنك بخير. ارتجاج خفيف.»

«لم أرَ وجهه.»

«لا يهم الآن.»

«لكنني شممت شيئًا يا حضرة الضابط. عطر. أنا أعرفه، لا أعرف من أين.»

دوّن زهران كلمة «عطر» في دفتره للمرة الثالثة في تلك القضية، ولم يعلق.

«ارتاحي الآن.»

«وهل... هل يريد أحد أن يؤذيني بسبب ما قلته لك؟»

أغلق زهران الدفتر وقال بصدق:

«يريد أحد أن يؤذي كل من يقترب من الحقيقة. لكنك اقتربتِ منها أكثر مما ينبغي، وبقيتِ حيّة. وهذا يا هالة يعني أنه ليس دائمًا يعمل بدقة.»

التحقيق المعاكس

شهادات لا تلتقي

أحاط زهران نفسه بالأسماء، كما يفعل دائمًا حين تعميه الصورة الكبيرة.

على لوحة الفلين المعلّقة في مكتبه علّق وجوهًا وتواريخ وخيوطًا حمراء، وفي الوسط صورة لينا بلا خط أحمر واحد يلمسها؛ فقد قرر ألا يوصّل شيئًا بها قبل أن يتأكد.

استدعى الشهود واحدًا واحدًا.

السيدة تهاني، الجارة المقابلة لشقة رشدي، امرأة في الستين من عمرها:

«رأيتها بعيني. كانت لينا. المعطف الرمادي وكل شيء. صعدت المصعد في الحادية عشرة والنصف.»

«هل رأيتِ وجهها؟»

«لا، كان رأسها منخفضًا، لكنني عرفتها من مشيتها.»

«وما الذي لاحظتِه؟»

ترددت، ثم قالت:

«رائحة... كانت تمرّ خلفها رائحة عطر رجالي ثقيل، من النوع الذي تضعه فئة الأثرياء.»

«أحيانًا نلتقط عطر الناس في المصاعد.»

«لا يا حضرة الضابط. العطر كان معها، عليها.»

دوّن زهران الجملة، ثم استدعى عم عبد الستار، بوّاب عمارة لينا:

«أنا شوفت المدام وهي نازلة قبل العاشرة والنصف بقليل. بس... ما شوفتش وشها. كانت بتلبس معطف، ولا تتكلم.»

«وإذا مرّ بك رجل أو امرأة، كيف تفرّق بينهما؟»

«من الشنطة. المدام كانت شايلة شنطة كبيرة.»

«لينا لا تحمل حقائب كبيرة؟»

«أبدًا. دي بتحط حاجتها في جيب المعطف.»

دوّن زهران هذا أيضًا. ثم جاءت السيدة نادية من الطابق الرابع في عمارة رشدي، وكانت في الغالب أكثر الشهود دقة:

«سمعت صوتين عند العاشرة والربع تقريبًا: صوت رشدي، ثم صوت رجل آخر. ما فهمتش الكلام. بعدها بخمس دقائق سكتوا.»

«رجل؟ أنتِ متأكدة؟»

«صوته رجالي، عميق وهادئ. هادئ جدًّا، غريب. كأنه يتكلم مع واحد قدامه وهو مبتسم.»

خرجت السيدة نادية، وعاد زهران إلى اللوحة. نظر إلى الورقة التي دوّنها: عطر رجالي، حقيبة كبيرة، صوت رجل هادئ في العاشرة والربع، لينا تظهر في الكاميرا في الحادية عشرة والنصف.

وقال لشريف الواقف خلفه:

«لدينا امرأة تظهر بعد الجريمة بساعة وربع، تحمل حقيبة لا تحملها عادة، وتتعطر بعطر لا تضعه. وهناك رجل، رجل هادئ، سبقها. أنت تفهم ما أعنيه؟»

«ربما كان شريكًا؟»

«وربما كان صاحب الجريمة كلها. وربما لم تكن هي إلا... ديكور.»

نور

في المساء، بعد يوم طويل في المديرية، عاد زهران إلى بيته الصغير في مدينة نصر.

استقبلته ابنته نور، ذات التسع سنوات، بقفزة وعناق:

«بابا! تأخرت!»

«آسف يا حبيبتي. شغل.»

«أنت دائمًا مشغول.»

«وأنتِ دائمًا أجمل حين تعاتبين.»

ضحكت، ثم أمسكت يده وجرّته إلى طاولة الطعام، حيث كانت أمها هبة تعدّ العشاء.

«أخيرًا»، قالت هبة بابتسامة متعبة. «هل تناولت شيئًا اليوم؟»

«قهوة.»

«قهوة ليست طعامًا يا زهران.»

«عندك حق.»

جلسوا حول الطاولة. كانت نور تحكي عن المدرسة، وصديقتها التي أخذت لعبتها، ومعلمة العلوم التي تكلمت عن الكواكب، وكان زهران يصغي ويبتسم ويسرح قليلًا فيما بين الجمل.

«بابا»، قالت نور فجأة، «هل صحيح أنك تبحث عن امرأة ظلموها؟»

سكتت هبة. نظر إليها زهران بدهشة:

«من قال لك؟»

«سمعتك تتحدث في الهاتف. قلتَ: "لا تفترضوا شيئًا عنها".»

«آه.»

وضع شوكته ونظر إلى ابنته، ثم قال بهدوء:

«نعم يا نور. هناك امرأة ظلموها، أو ربما لا. أنا أحاول أن أعرف.»

«وكيف تعرف؟»

«بأن لا أتسرع. بأن أسمع كل الأصوات، حتى التي لا يريد أحد سماعها.»

«وإذا لم تعرف؟»

«أستمر في السؤال.»

ابتسمت نور وقالت بصوت صغير حكيم:

«هذه أصعب مهمة.»

«نعم يا حبيبتي. أصعب مهمة في الدنيا.»

وفي المساء، حين نامت نور وجلست هبة بجانبه على الأريكة، قالت له بهدوء:

«أنت لم تكن هكذا قبل سليم.»

«لا.»

«وأنا فخورة بك.»

وضع رأسه على كتفها وأغمض عينيه، لأول مرة منذ أيام.

محقق لا يفترض شيئًا

كان لزهران قاعدة خاصة علّمه إياها أستاذه القديم في الأكاديمية:

«قسّم الحقيقة إلى ثلاثة أعمدة: ما هو ثابت، وما هو مزعوم، وما هو غائب. ثم ابدأ بالعمود الثالث.»

على ورقة بيضاء رسم الأعمدة.

الثابت: جثث ثلاث، ووشاح عليه بصمات لينا، ولقطة كاميرا لشخص يشبهها، ومفكرة بخط يشبه خطها.

المزعوم: أن لينا تُصاب بنوبات، أن فهد في الإسكندرية، أن لينا تمشي نائمة، أن لينا تأخذ أقراصها بنفسها.

الغائب: من الذي يعرف توقيت كل شيء؟ لماذا الضحايا بالذات؟ ولماذا الآن؟

وبدأ بالعمود الثالث.

ذهب إلى الطبيبة د. منى، التي كانت تعالج لينا قبل أن تنقطع. جلس في عيادتها الهادئة، فقالت له بصراحة:

«لينا مصابة بأعراض انشقاقية خفيفة يا حضرة الضابط: فجوات ذاكرة بعد الصدمات. لكنها ليست عدوانية ولا مؤذية. لقد عالجتها ثلاث سنوات ولم تُظهر ميلًا واحدًا للعنف، بل كانت تعتذر لي حين تتأخر.»

«هل تتناول أدوية مهدئة قوية؟»

«لا. وصفت لها مضادًا خفيفًا للقلق فقط. لماذا؟»

«لأن تحاليل دمها، حين أُخذت صباح القبض عليها، أظهرت مادة مهدئة بتركيز لا يتناسب مع أي وصفة طبية.»

اتسعت عينا الطبيبة:

«هذا مستحيل. هذه المادة ليست في خطتي العلاجية. من أين جاءت؟»

«هذا ما أبحث عنه.»

ثم قصد صيدلية قريبة من بيت لينا، وسأل الصيدلاني الشاب، وراجع السجلات، وعاد بملاحظة: وصفات متكررة بتوقيع الدكتور عادل الشرقاوي، تُصرف كل أسبوعين منذ ثمانية أشهر.

«لكن الدكتور عادل لم يكن يعالجها منذ سنوات»، قال زهران.

«أنا أبيع بما هو مكتوب»، قال الصيدلاني ببراءة. «وكان الذي يستلم الدواء يأتي بوصفة جاهزة ويدفع نقدًا.»

«من كان يأتي؟»

«لا أذكر وجهه. لكن لدينا كاميرا في الداخل، تُحفظ شهرًا.»

«وهل بقي التسجيل؟»

«لو لم يُمسح...»

وفي المساء كان زهران يقف في مطبخ شقة لينا نفسه، بإذن النيابة، وحيدًا. فتح الدواليب، وشمّ الترمس، ووجد على الرف العلوي علبة شاي أعشاب مفتوحة، فأخذها في كيس.

ثم سمع خطوات.

«حضرة الضابط؟»

كان فهد واقفًا عند الباب، يحمل حقيبة صغيرة.

«جئت لأخذ بعض ملابس لينا. هل يزعجك ذلك؟»

«أبدًا، تفضّل.»

وقف زهران يتأمل الرجل وهو يجمع الملابس بحرص، ويتمتم لنفسه بصوت منخفض حزين: «آه يا لينا، يا حبيبتي.»

«كيف كان السفر؟» سأل زهران ببراءة.

«متعِب. الإسكندرية في هذا الوقت زحام.»

«وأين أقمت؟»

«فندق على الكورنيش. لا أذكر اسمه الآن، فقد كنت متوترًا بسبب القضية.»

«لا بأس، سأعرف من الشركة.»

ابتسم فهد:

«طبعًا. أي شيء يساعد.»

كان كل جواب في مكانه تمامًا، ولا ثغرة واحدة؛ وذلك تحديدًا ما أقلق زهران.

«الصدق مليء بالفجوات؛ هو الشيء الوحيد الذي لا يُسبَك جيدًا.»

ليلة في الحجز

لم تنم لينا في تلك الليلة.

كانت الزنزانة صغيرة، جدرانها رمادية، وفيها سرير حديدي وبطانية خشنة. وفي الزاوية جلست امرأة في الخمسينات، أم صابر، متهمة بسرقة قديمة، تدخن سيجارة بلا تركيز.

سألتها: «أول مرة؟»

«نعم.»

«تبدين كأنك لم تأكلي منذ أسبوع. خذي.»

ناولتها قطعة خبز، فأخذتها لينا بيدين مرتعشتين.

همست: «أنا لست مجرمة.»

«لا أحد هنا مجرم»، قالت أم صابر ضاحكة. «كلنا ملائكة أخطأ فينا القدر.»

ضحكت لينا ضحكة قصيرة بلا إرادة، وكانت أول ضحكة منذ أسابيع.

«ما أصعب شيء عندك؟» سألت أم صابر بعد قليل.

«أنني لا أتذكر.»

«وماذا لو كان هذا أحسن؟»

«لا، لأن من لا يتذكر لا يستطيع أن يدافع، ولا يستطيع أن يحزن.»

سكتت المرأة، ثم قالت بهدوء:

«حين مات ابني نسيت أيامًا. لكن الذاكرة لا تخون يا بنتي، هي فقط تنتظر الوقت المناسب لتعود. وحين تعود... تعود كلها.»

وفي الثالثة فجرًا، حين ساد الصمت، أغمضت لينا عينيها، وفجأة، من غير موعد، عادت إليها أشياء صغيرة:

رائحة عطر ثقيل، خشبي، لاذع؛ هو عطر لم يضعه أبوها ولم يضعه أحد في عائلتها، عطر تعرفه من مكان آخر، من قريب جدًّا.

ثم كوب، كوب ماء أبيض، وصوت ملعقة صغيرة تدور داخله.

ثم صوت لحن، دندنة هادئة، دندنة رجل في الحمّام يغسل وجهه ويغني.

فتحت عينيها ببطء. كان قلبها يدق بعنف.

سألتها أم صابر: «ما بكِ؟»

«لا أعرف... شيء ما، ذكرى... لكنني لا أستطيع أن أقبض عليها.»

«لا تقبضي. اتركيها تأتي.»

وفي الصباح، حين دخل زهران لينقلها إلى الاستجواب، كانت ملامحها مختلفة. لم يعد وجهها ضائعًا، بل وجه من يبحث عن شيء مؤكد.

«ماذا حدث؟» سألها وهو يلاحظ ذلك.

«لا أعرف... لكنني أظن أن ذاكرتي لم تخنّي كلها. أظن أن شيئًا آخر كان يحجبها.»

دوّن زهران جملتها، وأضاف في هامش الدفتر: «أول ذكرى تعود... عطر، كوب، لحن.»

كتاب في الحجز

في اليوم الخامس من احتجازها طلبت لينا شيئًا غريبًا:

«هل يمكنني أن أقرأ؟»

كان زهران يجلس أمامها في الغرفة الصغيرة ذات النافذة، وبينهما كوب ماء لم يمسّه أحد.

«أي شيء؟»

«أي شيء فيه صوت إنسان لا يطلب مني أن أُجيب.»

ضحك ضحكة قصيرة، ثم أخرج من جيب معطفه كتابًا صغيرًا متهالكًا:

«هذا ما عندي. مجموعة قصص قصيرة. حملته معي سنوات ولم أقرأه كله.»

أخذته لينا وقلّبت صفحاته. لاحظ زهران أن يدها لم ترتجف.

سألته: «لماذا لم تقرأه كله؟»

«لأن القصص قد تدفعني إلى أن أصدّق شيئًا، وأنا أحاول ألا أصدّق شيئًا بسرعة.»

نظرت إليه بتفهّم:

«أنا كنت دائمًا أصدق بسرعة.»

«وهذا ليس عيبًا.»

«لقد كلفني حياتي.»

«لا أعرف بعد إن كان كلفك حياتك، لكنني أعرف أن من يصدّق بسهولة هو من يملك قلبًا مفتوحًا. والقلوب المفتوحة تتعرض لمن يريد أن يدخل، لكنها أيضًا القلوب الوحيدة التي تستطيع أن تحب.»

سكتت لينا، ثم قالت بنبرة طفولية جدية:

«هل تحب القراءة يا سيدي؟»

«أحب أن أكون عاقلًا بما فيه الكفاية لأعترف بأنني لا أقرأ كما ينبغي.»

ابتسمت:

«إذن سأقرأ لك حين يمرّ هذا كله. سأقرأ لك كل ما فاتك.»

«وعد؟»

«وعد.»

كان زهـران يعـرف أن الوعـود في غرف التحقيـق لا تسـاوي كثـيرًا، لـكنه حين غادر الغرفة شعر بأن شيئًا صغيرًا ودافئًا استقر في جيبـه، كأنـه كتاب قصص قديم عاد إليه أخيرًا.

النغمة

وصل تقرير مختبر الصوت إلى مكتب زهران في صباح يوم بارد.

كان مختصرًا، ورقة واحدة:

«اللحن المسجل مكوّن من خمس نغمات في سلّم هادئ يميل إلى الانحدار. يتشابه مع أنماط تهويدات شعبية قديمة، دون تطابق كامل مع أغنية معروفة. هل لديكم عينة للمقارنة؟»

قال زهران لشريف: «لا عينة. لكنني أحتاج أن أعرف إن كان اللحن مرتبطًا بأي من أطراف القضية.»

«من تقصد؟»

«أعني أن لينا قالت إنها سمعته في البيت من رجل، وقالت إنها أحيانًا كانت تسمعه في الليل.»

«وهل لهذا قيمة؟»

«قد لا يكون له قيمة. لكن الذاكرة الصوتية يا شريف أصدق من الذاكرة البصرية أحيانًا. ما يدخل الأذن قبل النوم لا يخرج.»

طلب زهران من الشركة المشغّلة تسجيلات الرسائل الصوتية لهواتف أطراف القضية، وبعد يومين وصلته مجموعة ملفات.

استمع إلى أولها: رسالة لينا الصوتية القصيرة، صوتها خافت وحزين. ثم رسائل هالة وسميّة والصيدلية.

ثم الملف الأخير: هاتف فهد.

فتح التسجيل. بدأ بنغمة قصيرة قبل «الرسالة الترحيبية»: خمس نغمات، ينحدر آخرها كتنهيدة.

توقف زهران. لم يتحرك. أعاد التسجيل، ثم مرة ثالثة، ثم شغّل تسجيل لينا بجانبه وشغّل الاثنين معًا.

كان اللحن واحدًا تمامًا.

نظر إلى شريف الذي كان قد سمع كل شيء بصمت، وقال بصوت شبه هامس:

«يا باشا...»

«لا تقل شيئًا. دعنا لا نقفز. هو لحن بسيط قد يتكرر في آلاف الأماكن. هذا ليس دليلًا بذاته.»

«لكن...»

«لكنه يضيف خيطًا آخر إلى الشبكة. وأنا أبحث عن شبكة، لا عن خيط.»

الأسطوانة الأخيرة

كانت كاميرا الصيدلية، كما قال الصيدلاني، تحفظ تسجيلات شهر واحد فقط.

سأل شريف الصيدلاني: «والباقي؟»

«يُمسح تلقائيًّا يا باشا. نظام قديم.»

رفع زهران حاجبيه:

«وكم مضى على وصفة الدواء المشبوهة؟»

«ثمانية أشهر. لكن من الوصفة الأخيرة شهر ونصف.»

«يعني أن التسجيل ضاع.»

لم يرد الصيدلاني، لكن عينيه تحركتا بقلق إلى الغرفة الخلفية.

«هناك شيء»، قال الصيدلاني أخيرًا بتردد. «أنا... أحتفظ بنسخة احتياطية، لأن لصًّا دخل مرة منذ سنتين. عندي جهاز قديم في المخزن يسجل ما يسجله الأساسي، لكنه لا يُمسح أبدًا، لأنني نسيت أن أعدّ إعداداته.»

انقلب وجه زهران إلى فرحة صغيرة هادئة:

«قد تكون أغبى عادة في هذه القضية يا سيدي. وربما أنقذتَ بها رجلًا.»

في المخزن، بين صناديق الأدوية القديمة وأكياس الشاش، وجدا جهازًا مغبرًا بشاشة صغيرة. أدار شريف الأزرار بأصابع بطيئة، ثم أخذت الصور تتتابع: أشهر من الزبائن، عجائز يتكئون، أمهات يحملن أطفالًا، مراهق يشتري بنادول بوجه متوتر.

قال زهران: «قف هنا.»

تجمدت الصورة: رجل أنيق في أواخر العشرينات، قميص أبيض نظيف، ملامح هادئة، يضع ورقة على المنضدة، يبتسم للصيدلاني، يدفع نقدًا.

«أعد المشهد.»

أعاده شريف.

«الورقة. تأمل الوصفة. توقيت دقيق؛ في كل مرة يأتي في اليوم نفسه من الشهر، في الساعة نفسها تقريبًا.»

«كأنه موظف حكومي!»

«لا، كأنه رجل يعتني بجدول. أخبرني: هل تعرف ما الجديد هنا؟»

«ماذا؟»

«هذا الرجل لا ينظر إلى الكاميرا أبدًا. كل زبون عادي يلقي عليها نظرة خاطفة. أما هو... فيعرف أين تقع بالضبط.»

لاحظ شريف ما لاحظه زهران، وارتجف:

«يعني أنه...»

«يعني أنه كان يحسب كل شيء، إلا هذا الجهاز الصغير الذي نسي صاحبه أنه موجود.»

نسخ زهران التسجيل على قرص صغير ووضعه في جيبه، كما يضع المرء تذكرة نجاته.

الانقلاب الكبير

الأدلة التي لا تعرف بعضها

في صباح الأحد وصلت إلى مكتب زهران خمسة أظرف من خمسة أماكن لا يربط بينها شيء.

لم يفتحها فورًا. وضعها على الطاولة الطويلة صفًّا واحدًا، وجلس أمامها يشرب قهوته ببطء. كان يعرف هذا النوع من اللحظات، اللحظة التي تتحول فيها القضية من فوضى إلى شكل منظم، وكان يخشى دائمًا ما سيراه حين يرتسم الشكل.

أشار إلى شريف:

«افتح واحدًا واحدًا، ولا تقل لي ما رأيك قبل أن نفتحها كلها.»

الظرف الأول: مختبر الأدلة

تقرير الفنية د. ناهد، بخط صغير مرتب:

«تحليل الشاي في الترمس المضبوط من شقة السيدة لينا: وجود مادة مهدئة قوية بتركيز عالٍ. تتطابق المادة مع ما وُجد في دمها صباح القبض عليها. الكمية تكفي لإحداث نعاس عميق وفجوات في الذاكرة لدى شخص

بالغ. على الترمس بصمة واحدة كاملة، يد يُمنى لرجل. لا توجد أي بصمة للسيدة لينا.»

وفي الملاحظات الجانبية: «البصمة مطابقة لبصمات الأستاذ فهد، التي أُخذت منه عند تسليمه الملف الطبي.»

صمت شريف، لم يعلّق.

الظرف الثاني: الصيدلية

قرص صغير نُسخ من الجهاز الاحتياطي القديم في مخزن الصيدلاني: تسجيل صامت بالأبيض والأسود. رجل أنيق في أواخر العشرينات، قميص أبيض، يدخل في الموعد نفسه تقريبًا كل أسبوعين، يقدّم وصفة، يدفع نقدًا، ويبتسم للصيدلاني ابتسامة مهذبة.

كان فهد.

وفي الوصفات التي جمعها زهران، توقيع الدكتور عادل الشرقاوي: حسُنَ التقليد، لكنه جامد، ينقصه ارتجاف اليد المسنّة. وقد قال الخبير: «توقيع رسمه من لم يتعوّد على يد صاحبه.»

الظرف الثالث: كاميرات الطرق

كشف من إدارة المرور: سيارة فهد البيضاء تدخل القاهرة من الطريق الصحراوي عند الثامنة وثماني وخمسين دقيقة مساء يوم الجريمة، وتغادر عند الواحدة وخمس دقائق فجرًا.

قال شريف: «يعني أنه كان هنا، أخيرًا، ليلة مقتل رشدي.»

«ولم يكن في الإسكندرية.»

الظرف الرابع: الفندق

سجل بطاقة الغرفة، مطبوعًا من النظام الإلكتروني للفندق: الغرفة حُجزت باسمه وأُغلقت منذ السادسة مساءً، ولم تُفتح مرة واحدة حتى السابعة صباحًا. الأغطية لم تُمسّ، وبطاقة الإفطار لم تُستخدم.

«دفع ثمن غرفة لينام في سيارته؟»

«أو ليقول إنه نام فيها.»

الظرف الخامس: خبير الخطوط

تقرير مفصّل من ست صفحات عن المفكرة: خط مقلَّد بعناية، لكنه كُتب بيد يمنى، بضغط ثابت وحركات لا تتردد. أما لينا فهي عسراء؛ خطها يميل قليلًا إلى اليسار، وأحرفها تتداخل، وتتأخر نقاطها.

والأهم، في الصفحة الأخيرة من التقرير: الحبر على الصفحات المؤرخة في مارس وأبريل ومايو حديث، لا يتجاوز عمره أسابيع. وفي النهاية جملة بخط الخبير نفسه: «من كتب هذا يحفظ أشكال الحروف، لكنه لم يتعلم حركتها. إنه رسم خط لينا... ولم يكتبها.»

* * *

وضع زهران الأوراق الخمس بجانب بعضها على الطاولة، واستند إلى الكرسي.

«كل ورقة جاءت من مكان مختلف»، قال بصوت منخفض. «لا المختبر يعرف الصيدلية، ولا الفندق يعرف الخبير، ولا المرور يعرف أحدًا منهم. ولا أحد منهم يعرف القصة كاملة. لكنهم جميعًا، من دون اتفاق، يشيرون إلى الاتجاه نفسه.»

«فهد.»

«ليس بعد. لا أريد اتجاهًا، أريد شبكة. إن كان رجل واحد بريئًا، فقد يقع عليه دليل بالصدفة، أو اثنان. لكن أن تقع عليه خمسة أدلة مستقلة من خمس جهات لا تعرف بعضها، فهذا لم يعد صدفة.»

ثم رنّ هاتف المكتب؛ كان رجل الأمن من عمارة رشدي:

«حضرة الضابط، فتشنا الشقة تفتيشًا ثانيًا كما طلبت. وجدنا شيئًا في علبة بسكويت قديمة، مخبأة داخل إطار السرير الخشبي.»

* * *

بعد ساعة كان أمام زهران دفتر صغير بخط رجل عجوز، رجل قضى عمره يدوّن كل ما يراه من نافذته. كانت ابنته سعاد تقف عند الباب، ويدها على فمها.

همست: «هذا خطه. أنا عرفته.»

قلّب زهران صفحات الدفتر: تواريخ، وأرقام لوحات، وأسماء باعة، وملاحظات عن الطقس. وفي الصفحة الأخيرة، بحبر أزرق، سطر ملحوظ:

الأربعاء، ١١:٤٠ مساءً: سيارة بيضاء أمام عيادة الدكتور عادل.

رقم اللوحة ... رأيتُ رجلًا يخرج بسرعة يحمل حقيبة. أظنني أعرفه.

هو زوج الجارة لينا. سأخبر الشرطة صباح الغد.

لم يخبر رشدي الشرطة صباح الغد؛ فقد مات قبل ذلك.

وقف زهران طويلًا. كان الرقم المدوّن يطابق لوحة السيارة المسجلة في كاميرات الطريق: السيارة نفسها، الرجل نفسه.

قالت سعاد بصوت متحشرج:

«أبي كان يقول دائمًا: "إن رأيتُ ولم أدوّن فقد خنتُ الأمانة."»

«ولم يخنها»، قال زهران بهدوء. «كتبها. كتب الحقيقة.»

* * *

وفي الظهيرة دخلت الحاجة سميّة إلى مكتبه، وخلفها كيس نايلون صغير بيدين مرتجفتين.

«قال لي الجميع إنني أهذي»، قالت وهي تجلس بحذر. «لكنني حين زرت بنتي المرة الأخيرة، أخذت عينة من الشاي الذي كان في الترمس. لم أعرف لماذا، شعرتُ بذلك فحسب. وأخذت أيضًا هذا.»

أخرجت علبة دواء قديمة، على غلافها كُتب بخط يدوي: «تؤخذ مرتين يوميًّا.»

«هذا ليس خط الدكتورة منى، ولا خط الدكتور عادل. هذا خط زوجها. رأيته على ورقة الثلاجة، ورقة المواعيد. أنا أعرف خطوط الناس يا ابني. أُمٌّ تعرف خط ابنها حين يكتب لها أول رسالة.»

حلّل المختبر عينتها في المساء، وجاءت النتيجة مطابقة تمامًا لما في الترمس الذي ضُبط في الشقة؛ العينتان، من زمنين مختلفين، تحويان المادة نفسها.

نظر زهران إلى المرأة المسنّة وإلى ضعفها الذي يخبئ إرادة الصخر، وقال:

«سيدتي، هل تريدين شايًا؟»

«لا. أريد ابنتي فقط.»

«سأعيدها لك. أعدك.»

«لا تعدني. فقط افعل.»

* * *

في المساء، حين انصرف الجميع، وقف زهران أمام لوحة الفلين في مكتبه وبين يديه خيط أحمر طويل.

لثلاثة أسابيع كانت لينا في المنتصف، بلا خيط واحد يلمسها. الآن، ببطء وبيد لا تريد أن تتعجل، بدأ يشدّ الخيوط من الجهات الخمس: الصيدلية، الفندق، الطريق، الخط، الشاي؛ ودفتر رجل عجوز، وأم لا تنام.

وفي نقطة التقائها كلها صورة واحدة: وجه شاب يبتسم لحظة زفافه.

ثبّت الخيط الأخير وتراجع خطوة، وفي صدره شعور لم يعتده في قضية من قبل: لا انتصار ولا فرح، بل ثقل؛ ثقل من يعرف أن الحقيقة كانت أبسط وأقسى من كل ما تخيله.

«غدًا»، قال بصوت لا يسمعه أحد، «غدًا نكتب النهاية.»

ليلة في بيت سميّة

لم يكن زهران قد أتمّ تدبير الفخ حين دقّ الجرس في بيت الحاجة سميّة.

كان المساء قد هبط على شبرا، ورائحة الطبخ تتسرب من النوافذ. فتحت الحاجة الباب بحذر، ووقفت لحظة تتأمل الزائر:

«فهد؟»

«مساء الخير يا خالة. هل أستطيع الدخول؟»

كان يحمل علبة حلويات وباقة صغيرة من الورد. وجهه متعب، وعيناه حمراوان، وفي صوته ارتعاشة ناعمة.

«تفضل.»

جلس على الأريكة البنفسجية، وأخذ يدير العلبة بين أصابعه:

«أنا لا أنام يا خالة. لا أنام منذ أن أخذوها. أريدها أن تعود.»

قالت له: «وأنا أيضًا.»

«لهذا جئت. أريد أن أعرض عليكِ شيئًا: هناك مصحة خاصة في المقطم، سمعة طيبة ورعاية حقيقية. يمكنني نقل لينا إليها حتى تنتهي

التحقيقات، تُعالَج هناك بعيدًا عن هذا السجن القاسي. لكن أحتاج توقيعك على أوراق الموافقة.»

سحب من حقيبته مجموعة أوراق مطبوعة، ووضعها أمامها على الطاولة:

«أنا الزوج، ولكن أنتِ الأم. سيكون الأمر سهلًا إن وافقنا نحن الاثنان.»

نظرت سميّة إلى الأوراق، ثم إليه.

كان في وجهه كل صفات الحنان، لكن شيئًا ما، شيئًا صغيرًا جدًّا لا يُرى، كان يدق في أعماقها منذ دخل من الباب: العطر. رائحة خشبية ثقيلة دافئة، غريبة عن بيتها.

«يا فهد، أنا امرأة قليلة العلم بهذه الأمور. هل تسمح لي أن أقرأ هذه الأوراق مع أحد؟»

«طبعًا. لكن الوقت ضيق يا خالة. كل يوم تقضيه لينا في الحجز...»

«سأقرأها الليلة، وغدًا أرد عليك.»

توقف فهد لحظة، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة:

«كما تشائين.»

«هل تشرب شايًا؟»

«لا، شكرًا. لا أشرب إلا من يدي.»

قالها بنبرة طريفة ضاحكة، لكن سميّة لاحظت شيئًا آخر: لم يكن يمزح.

وقف وطبع قبلة على جبينها، كما فعل في الزفاف:

«لا تتأخري يا خالة. من أجل لينا.»

وما إن أُغلق الباب خلفه حتى سارت الحاجة سميّة نحو الهاتف بخطوات ثقيلة:

«ألو، حضرة الضابط زهران؟ أنا سميّة. لقد جاءني الآن ومعه أوراق، وهو... أنا لا أعرف كيف أقولها... هو لم يكن يعرض عليّ المساعدة. كان يعرض عليّ أن أسلّمه ابنتي.»

وجه في المرآة

في تلك الليلة عاد فهد إلى البيت الخالي.

لم يشعل الضوء. دخل غرفة النوم وجلس على حافة السرير ينظر إلى الحائط المقابل. كان الصمت في الشقة كثيفًا ثقيلًا، لأول مرة منذ سنوات خاليًا من أي نبض آخر.

لم تكن لينا هنا، ولا ظلها، ولا ذلك الارتعاش اللطيف الذي كان يملأ الغرف.

نهض، وتوجه إلى المرآة الكبيرة في الصالة، وأضاء مصباحًا صغيرًا جانبيًّا، ووقف أمام زجاجها.

رأى نفسه: شابًّا وسيمًا، متعبًا قليلًا، أنيقًا رغم كل شيء.

ثم حرّك وجهه.

ابتسامة صغيرة قلقة مرتجفة، جبهة تتغضن بالهم، عينان رطبتان، شفتان تهتزان قليلًا:

«لينا... حبيبتي...»

كان صوته يخرج دافئًا مكسورًا، كما تدرب عليه.

ثم عاد وجهه إلى حالته الأولى: هادئًا، ساكنًا، بلا شيء.

وقف طويلًا يتأمل الفرق بين الوجهين، ثم همس بصوت لم يسمعه أحد:

«غريب. لم أتخيل أن الأمر سيستغرق كل هذا الوقت... لأتخلى عن وجه كنت أعرف أنه ليس لي.»

اقترب من الطاولة، وفتح الدرج المغلق، الدرج الذي يحوي الأوراق التي كتبتها لينا بيدها عشرات المرات. أخذها كلها، ووضعها في كيس، ووقف مترددًا لحظة.

ثم أعادها.

«لا... لو أحرقتها فأنا أعترف بأنني خفت. وأنا لم أخف.»

أطفأ الضوء، وترك الورق مكانه.

وفي الظلام، حين استلقى على السرير، لم يكن في حالة من يخشى شيئًا. كان في حالة من يدرك فجأة أن لعبته الطويلة قد خرجت من يده، وأنه لأول مرة لا يعرف كيف تنتهي.

ليلة قبل الزجاج

في الليلة التي سبقت المواجهة لم ينم أحد في المديرية.

وقف زهران أمام وكيل النيابة في مكتب صغير، وبينهما ملف سميك.

قال وكيل النيابة: «أنت تطلب مني أن أغامر! الأدلة التي لدينا ضد الزوجة لا تزال قائمة: المفكرة، الوشاح، الكاميرا...»

«وكل واحدة منها يا سيدي انهارت عند الفحص. الوشاح: بصماتها عليه قديمة، لا تثبت لحظة الجريمة. المفكرة: كُتبت بيد أخرى. الكاميرا: تُظهر يدًا لا تشبه يدها.»

«وماذا تقترح؟»

«أن أواجه الزوج، لا بالاتهام بل بالأدلة. أن أتركه يتكلم. هذا النوع من الرجال لا يتحمل أن يكون أقل ذكاءً من الآخرين.»

«وإن فشلت؟»

«أكون قد خسرت قضية. وإن لم أفعل، أكون قد خسرت إنسانة.»

سكت الوكيل، ثم أخذ القلم ووقّع:

«لن أمنعك، لكنني أحذرك: إن لم يعترف، فلن ننتزع منه شيئًا.»

قال زهران بهدوء: «لن نحتاج إلى اعترافه. نحتاج فقط إلى أن يعتقد أنه يملكه.»

* * *

في الليلة نفسها زار زهران لينا في غرفتها.

قال: «غدًا لن أطلب منك شيئًا سوى أن تسمعي. ستجلسين خلف زجاج، لن يراكِ ولن يعرف أنك هناك. وقد تسمعين أشياء ستؤلمك.»

«أشياء عنه؟»

«عنه، وعنك، وعن الحقيقة.»

ارتجفت شفتاها:

«وماذا لو لم أستطع؟»

«يمكنك أن تغادري في أي وقت. لكنني أظن أنك تريدين أن تعرفي، وأظن أنه من حقك.»

نظرت إليه طويلًا، ثم أومأت بالموافقة:

«سأبقى.»

وفي الممر كانت الحاجة سميّة تنتظر منذ ساعات. أمسكت بيد زهران بيدين نحيلتين، وقالت: «افعل ما يلزم يا ابني، وأنا هنا. لن أتحرك.»

«لن أسمح لأحد بأن يؤذيها بعد اليوم يا حاجة.»

قالت: «أعرف. لأنك لا تُشبهه.»

القناع حين يسقط

وصل زهران إلى المديرية قبل الفجر.

لم يكن قد نام. جلس في غرفة التحقيق البيضاء وحده، يتأمل الطاولة المعدنية والكرسيين المتقابلين والمصباح الأصفر الذي يرتجف. وضع على الطاولة ملفًّا سميكًا، وبجانبه كوبين من الماء: أحدهما أمامه، والآخر في الجهة المقابلة.

لم يسكب لأحد شايًا. «لا يشرب إلا من يده»، تذكّر. «لنرَ إن كان يشرب من يدي.»

وبعد ساعات، في الغرفة المجاورة، خلف الزجاج الذي لا يُرى من الجهة الأخرى، جلس شريف على كرسي خشبي، وبجانبه جلست لينا مدثّرة ببطانية رمادية.

لم تكن قد قالت شيئًا منذ ساعة. كانت تنظر إلى الغرفة البيضاء كما ينظر المرء إلى مسرح فارغ ستُعرض عليه حياته.

همس شريف: «لن يراكِ. والزجاج سميك. يمكنـك أن تغـادري في أي لحظة.»

«أعرف.»

«وإن أردتِ أن أخرج معك...»

«أنا هنا.»

* * *

في الثامنة والنصف وصل فهد.

دخل الغرفة بخطوات هادئة، يرتدي بدلة رمادية نظيفة وقميصًا أبيض ناصعًا، وعلى وجهه تعب مرتب بعناية. بدا كرجل لم ينم لكنه يرفض الاستسلام.

«صباح الخير يا حضرة الضابط. أرجو أن تكون عندك أخبار طيبة.»

«تفضّل يا أستاذ فهد.»

جلس ومدّ يده فورًا نحو كوب الماء أمامه، لكنه توقف في منتصف الحركة، وسحب يده ووضعها على ركبتيه.

لاحظ زهران ذلك ولم يعلّق.

«لدينا بعض الأسئلة الأخيرة قبل أن نغلق ملف زوجتك»، قال بصوت هادئ.

«أي شيء يساعد. طبعًا.»

«تقول إنك كنت في الإسكندرية ليلة مقتل رشدي عبد الحميد.»

«طبعًا.»

أخرج زهران الورقة الأولى ووضعها أمامه: سجلّ بطاقة الفندق.

«غرفتك لم تُفتح من السادسة مساءً حتى السابعة صباحًا.»

ابتسم فهد ابتسامة صغيرة مُتفهمة:

«ربما قضيت الليل في الخارج مع عميل. كنا نراجع الرسومات.»

«مع من؟»

«لا أتذكر الاسم الآن. أنا متوتر منذ أن... أنت تعلم.»

«لا بأس، سنبحث.»

أخرج الورقة الثانية: كشف المرور.

«سيارتك دخلت القاهرة من الطريق الصحراوي عند الثامنة وثماني وخمسين دقيقة مساء ذلك اليوم، وغادرت عند الواحدة وخمس دقائق فجرًا.»

وهنا، للمرة الأولى، تغيّر شيء صغير في وجه فهد. لم يكن خوفًا بل حسابًا، كمن يُعدّل خطته في منتصف جملة.

قال: «الطرق تُظهر سيارات كثيرة. قد تكون سيارة تشبه سيارتي، أو لوحة مقلّدة. أنت تعرف كيف تُزوَّر الأرقام في هذا البلد.»

«هذا صحيح.»

أعطى زهران هذه الإجابة بهدوء، ثم أخرج الورقة الثالثة: صفحة من دفتر صغير، بحبر أزرق، نسخة مصورة.

«لكن لوحة سيارتك تطابق لوحة السيارة المدوّنة في دفتر رشدي»، قال وهو يراقب عيني فهد. «هل كنت تعلم أن رشدي كان يدوّن؟»

سكت فهد.

هذه المرة سكتة طويلة. لم يتحرك، حتى أنفاسه بدت متباطئة، كمن يضغط زرًّا في داخله.

قال أخيرًا: «هذا... رجل عجوز. قد يخطئ في الأرقام.»

«دوّن أنه رآك تخرج من عيادة الدكتور عادل ليلة موته، وأنه يظن أنه يعرفك.»

«لم أذهب إلى تلك العيادة.»

«وهذا؟»

وضع زهران صورة من كاميرا الصيدلية:

«هذه لك، تشتري دواءً بوصفة باسم الدكتور عادل، توقيعه مزوّر كما قال الخبير. أخبرني: هل كنت تخبر لينا أنك تتولى مسؤولية أقراصها لأنك تحبها؟»

«أنا كنت أحاول مساعدتها...»

«بمهدئ قوي في الشاي؟»

«هذا غير صحيح.»

«وأحدث ما لدينا: التحليل.»

وضع الورقة الأخيرة: تقرير المختبر.

«الشاي في الترمس الذي ضبطناه من بيتك، والشاي في العينة التي أخذتها حماتك قبل أسبوعين: المادة نفسها، بالتركيز نفسه. وعلى الترمس بصمة واحدة: يدك اليمنى. وعلى علبة الأقراص خط يدك. وعلى المفكرة التي تحمل أسماء الضحايا، يا أستاذ فهد، حبر جفّ منذ أسبوعين، وخط كتبته يد يمنى تقلّد يدًا يسرى.»

كان صدى الجملة الأخيرة ما يزال يتردد في الغرفة حين رفع فهد عينيه.

* * *

لم يكن تغيّرًا مفاجئًا، بل ذوبانًا بطيئًا، كقناع من الشمع يقترب من النار.

بدأت ملامحه تسترخي. تلاشى الحزن الذي ثبّته ثلاث سنوات على وجهه كطلاء، واختفى الارتجاف في زاوية الفم، وبقي وجه آخر: بارد، مستقيم، يكاد يكون مرتاحًا، كمن خلع حذاءً ضيقًا بعد يوم طويل.

«أنت أذكى مما حسبت»، قال بنبرة خفيفة.

لم يتحرك زهران.

تابع فهد، وهو يتراجع في كرسيه ويضع ساقًا فوق أخرى: «ثلاث سنوات. ثلاث سنوات وأنا أنسج كل شيء. كان مثاليًّا: الجارة العجوز، الطبيب الهرم، الزوجة التي تنسى. لولا أن عجوزًا مثل رشدي كان يجلس عند نافذته بقلم أزرق.»

«لماذا؟» سأل زهران بصوت متماسك.

ابتسم فهد:

«هل تعرف ما أجمل ما في الأمر؟ لحظة النظرة. ثانيتان فقط، حين تدرك الحاجة صفية أنها لن تخرج. حين يفهم الدكتور عادل أن كلماته لن تصل. وحين... حين تنظر لينا إليّ كل ليلة وتسألني: "هل أنا مجنونة؟" وأنا أجيبها: "لا يا حبيبتي، أنتِ متعبة فقط." كان ذلك أحلى من أي شيء.»

في الغرفة الأخرى سقطت لينا من مقعدها على الأرض.

لم تصرخ. وضعت يديها على فمها وانكمشت على نفسها كطفلة تحت طاولة. وكان الصوت يأتيها من خلف الزجاج السميك، هادئًا كما عرفته دائمًا، وهو يحكي بعذوبة كيف كانت تُصدّق، وكيف كانت تعتذر عن جرائمه، وكيف كانت ترتجف حين يضع لها الشاي.

انحنى شريف نحوها ومدّ يده، لكنها هزّت رأسها: «دعني.»

«ولماذا هي؟» سأل زهران. كان صوته قد انخفض حتى كاد لا يُسمع.

قال فهد: «لأنها أحبتني بلا شروط. وهذا النوع من الحب لا يسأل، ولا يتحقق، يُصدّق. كنت أحتاج إلى من يصدّقني، وإلى من يصدّقه الناس حين يُتَّهَم: امرأة مكسورة تحمل ظلها معها أينما ذهبت. ما أسهل أن يصبح الظل مجرمًا.»

وقف زهران ببطء. كانت يداه ثابتتين، لكن شيئًا في عمق صدره كان يرتجف.

«انتهينا يا أستاذ فهد.»

«وماذا ستفعلون؟ تعرضون اعترافي في المحكمة؟ أنا سأنكر، وسأقول إنكم أخذتموه مني بالإكراه، وسيصدقني الكثيرون. أنا رجل مهذب، والجميع يعرف ذلك.»

«لن نحتاج إليه»، قال زهران، وفتح الباب.

ودخل شريف ومعه رجال الأمن. اقتربوا من فهد من الجهتين.

قال زهران وهو يقف أمامه: «أدلتنا وحدها تكفي: الصيدلية، والفندق، والطرق، ودفتر رشدي، وشهادة الأم، والشاي، والخط. كل واحدة منها جاءت من جهة مختلفة، ولا تعرف الواحدة الأخرى. هذه ليست قصة تنهدم باعتراف يُسحب. هذه قصة بُنيت بخمسة جدران لا يعرف بعضها بعضًا، وقد انهارت عليك معًا.»

أمسكوا بذراعيه، فنهض فهد وقد عادت إليه ابتسامته الصغيرة، ابتسامة من يغادر مسرحًا بعد عرض لم يعجبه نصفه.

قال وهو يُساق نحو الباب: «قل لها... قل لها إنني كنت أحبها بطريقتي.»

لم يردّ زهران.

نظر إلى الرجل الذي يمرّ بجانبه، الرجل الذي أمضى ثلاث سنوات يقتل من حوله بوجه ملاك، ولم يشعر بشيء سوى تعب هائل. فتح فمه ليقول شيئًا، ثم أغلقه.

وحين اختفى فهد في الممر، التفت زهران إلى الزجاج حيث لينا.

* * *

في الغرفة المجاورة كانت لينا قد وقفت.

اتكأت بيـدها على الجـدار ونهضـت من الأرض ببطء، وجههـا أبيض وعيناهـا واسـعتان كأنهمـا لا تريان شيئًا. نظـرت من خلـف الزجاج إلى الغرفة الفارغة، إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل لحظات، إلى كوب الماء الذي لم يشربه.

كانت تنظر إلى الرجل الذي أمضت معه ثلاث سنوات، الرجل الذي نامت إلى جـواره، وأحبّتـه، وصـدّقته، وبكت على صـدره، فلم تَرَ وجهًـا تعرفه.

ثم همست بصوت لا يسمعه أحد سواها:

«من أنت؟»

ما بعد الزجاج

حين أغلق الباب على فهد...

كانت كل جملة خرجت من فمه تدور في رأسها كأسطوانة مخدوشة:

«كان أحلى من أي شيء.»

«لأنها أحبتني بلا شروط.»

دخلت سميّة بخطوات ثقيلة، وجلست بجانبها على الأرض الباردة دون كلمة. لم تحاول أن تأخذها بين ذراعيها، فقط جلست حتى تكون موجودة.

«ماما...»

«نعم يا نور عيني.»

«أنا ظننت أنه يحبني.»

«أعرف.»

«وكنت أحبه.»

«أعرف.»

«وأنا... أنا لا أعرف الآن من أنا.»

حينها فقط ضمتها سميّة، وارتجف جسدا المرأتين معًا كأنهما شجرة واحدة في ريح.

وفي زاوية الممر وقفت هالة تبكي بصمت، تغطي فمها بيدها. لم تقترب، كانت تعرف أن بعض الحزن لا يحتمل أكثر من اثنين.

اقترب زهران ببطء ووقف على بعد خطوات. كان يحمل كوبًا صغيرًا من الماء.

قال بصوت منخفض: «لينا، هذا ماء جئت به بنفسي من الصنبور أمامك. لم يلمسه أحد.»

نظرت إليه. وكانت هذه الجملة بالذات هي التي كسرتها.

انفجر بكاؤها بعد أسابيع من الصمت، بكاء ثقيل متقطع، كأن شيئًا كبيرًا ينهار في صدرها ليترك مكانًا لشيء آخر.

أخذت الكوب بيدين مرتعشتين وشربت، ثم قالت بصوت مبحوح:

«شكرًا.»

«على ماذا؟»

«على أنك سألت.»

الطفل الذي كان يشاهد

(ملف ماضي فهد كما جمعه فريق التحقيق)

بعد القبض عليه طلب زهران كل ما يمكن أن يعثر عليه عن ماضي فهد، وكانت المفاجأة أن الماضي كان... عاديًّا.

وُلد فهد في أسرة متوسطة، لأب موظف وأم معلمة. لم يتعرض لعنف ولا حرمان. وصفه جيرانه بأنه «طفل مهذب جدًّا، قليل الكلام»، ووصفته معلمته بأنه «لا يبكي حين يبكي الآخرون، ولا يضحك حين يضحك الجميع، لكنه يراقب».

وكان فهد قد قطع صلته بأهله منذ سنوات، وأخبر لينا أنه وحيد. وكانت أمه قد كتبت في مذكرات قديمة سطرين لم تقرأهما العائلة إلا بعد القبض عليه:

«ابني لا يؤذي أحدًا، لكنه حين يتألم أحد أمامه لا يمدّ يده، فقط ينظر. ولا أعرف لماذا يخيفني هذا.»

وفي مقابلة مع طبيب نفسي استعان به زهران، قال الطبيب:

«هناك أشخاص يا حضرة الضابط يولدون بلا أداة الشعور بألم الآخرين. هذا لا يعني أنهم يقتلون، لكنه يعني أنهم قد يختارون ذلك إن وجدوا فيه لذة.»

«وهل كانت طفولته مؤلمة؟»

«لا. وهذا هو الجزء المهم: لا تبحث عن عذر في الماضي. بعض الناس لا تصنعهم الظروف؛ هم يصنعون ظروفهم.»

قرأ زهران الجملة مرتين، ثم أغلق الملف.

وفي آخر صفحة وجد صورة صغيرة لفهد في العاشرة، جالسًا على عتبة منزل، يبتسم للكاميرا ابتسامة بريئة تمامًا. وخلف الصورة، بخط الأم: «أحبك يا فهد. أرجو أن أكون مخطئة.»

أغلق زهران الملف، ووضع على غلافه عبارة واحدة: «لا تبرير».

صباح المحاكمة

استيقظت لينا في الخامسة، قبل أن يرنّ المنبّه.

كانت الشمس تتسلل من خلف الستائر في الغرفة الصغيرة التي استضافتها فيها سميّة، شبه نائمة، شبه حالمة. وعلى الكرسي المجاور للسرير كان فستان بسيط داكن اللون، مكويًّا بعناية.

قالت سميّة وهي تدخل: «اغسلي وجهك، سأعدّ لك شايًا.»

«لا، لا أريد شايًا.»

«إذن ماءً.»

«ماء»، وافقت لينا بابتسامة قصيرة.

جلست أمام المرآة، ووقفت سميّة خلفها تمشّط شعرها. كانت الأم تمرّر الفرشاة ببطء، كما فعلت قبل عشرين عامًا، وعيناها تلتقيان بعيني ابنتها في المرآة.

همست لينا: «أنا خائفة.»

«وأنا أيضًا.»

«ماذا لو...»

«لا تقولي شيئًا. سنخرج، سنجلس، سنسمع، وأنا بجانبك.»

«وإذا نظر إليّ؟»

«لن تنظري إليه. أو انظري، لا فرق. أنتِ اليوم لستِ كما كنتِ.»

في الثامنة وصلت هالة بوجه شاحب وعينين متعبتين، ومعها قارورة ماء. وبعد الثامنة والنصف خرجن معًا إلى الشارع.

كانت القاعة محاطة بالصحفيين، وما إن نزلت لينا من السيارة حتى تعالت الأصوات والومضات:

«سيدة لينا! هل تشعرين بالارتياح؟»

«هل كنتِ تعلمين؟»

«هل ستسامحينه؟»

شدّت سميّة على يدها، ووقفت هالة أمامها كدرع.

«لا تعليق»، قالت هالة بصوت حازم.

وفي لحظة، من وسط الزحام، اقتربت امرأة عجوز لا تعرفها لينا، ترتدي معطفًا بنيًّا بسيطًا، وأمسكت بيدها وقالت بصوت متهدج:

«الله يعينك يا بنتي. أنا صدّقتكِ من أول يوم.»

ولم تفهم لينا لماذا بكت.

حين دخلت القاعة رأت المقاعد الخشبية الطويلة، والقاضي الذي لم يدخل بعدُ، والقفص الفارغ. جلست في الصف الثاني، وبين أصابعها قطعة صغيرة من القماش تمسكها بقوة: منديل أبيض طرّزته سميّة بحروف اسمها.

ثم فُتح الباب الجانبي ودخل فهد.

لم تنظر إليه، لكنها شعرت بنظرته على جانب وجهها، كما يشعر المرء بشمس مائلة.

وحين جلس القاضي، همست لنفسها جملة والدها القديمة، الجملة التي وجدتها في فراغ الذاكرة:

«اسمعي نفسك يا لينا، فأنتِ أصدق من يعرفك.»

الحساب

لم تستغرق المحاكمة وقتًا طويلًا، فقد كانت الأدلة أثقل من أن تُحمل.

في قاعة المحكمة الكبيرة جلس فهد خلف القضبان بقميص أبيض نظيف، يحاول للمرة الأخيرة أن يرتدي وجه الشاب المهذب. لكن الوجوه التي كانت تصدّقه صارت تنظر إليه كما تنظر إلى لغز انكشف.

وقف الدفاع يبحث عن ثغرة. تحدث عن «ضغط نفسي»، وعن «ظروف غامضة»، وعن زوجة مريضة «قد تكون هي الفاعلة الحقيقية». لكن أحدًا لم يعد يصدّق ذلك؛ فقد وقف خبير الخطوط، ثم موظف الصيدلية، ثم الطبيبة منى، ثم الحاجة سميّة بصوت مرتجف لكنه ثابت:

«ابنتي لا تؤذي نملة. أما هو... فقد كان يطعمها السم بيده ويقبّل جبينها.»

ولم يجد القاضي ما يضيفه.

وفي ختام جلسة طويلة نطق الحكم: الإعدام شنقًا، عن جرائم قتل مع سبق الإصرار والترصد، والاحتيال، وتزوير المحررات، والتحريض على الإضرار بصحة شخص عاجز عن الدفاع عن نفسه.

لم يرمش فهد، لكن شيئًا في عينيه تغيّر حين سمع آخر جملة. لم يكن ندمًا ولا خوفًا، بل دهشة؛ دهشة رجل لم يتخيل يومًا أن تكون الحياة التي تلاعب بها أقوى منه.

وحين أُخرج من القاعة، استدار نحو الصفوف الخلفية حيث جلست لينا بين أمها وهالة. نظر إليها دقيقة واحدة، وكانت تنظر إليه بعينين لا تعرفان الكراهية، وإنما تعرفان فقط الحزن الأخير، الذي يشبه وداع شخص لم يوجد قط.

«أنا لن أسامحك»، قالت بهدوء، بصوت يكاد يصل إليه. «ولا أحقد عليك. أنا فقط... لا أعرفك.»

* * *

وكان الحكم سيُنفذ بعد شهور، عند الفجر، دون ضجيج، كما تنتهي الأشياء التي لم يكن لها قيمة. وحين أبلغ زهران الخبر لشريف، أطفأ السيجارة ببطء وقال:

«أتعرف ما أغرب شيء في كل هذه القصة؟»

«ما هو؟»

«أنه لم يتعلم أبدًا أن أقسى ما يمكن أن تفعله بشخص هو ألا تؤمن به.»

ثم أضاف بعد صمت:

«وأن أقوى ما في الدنيا امرأة قالت لها أمها: "أعرف يديك".»

* * *

وفي خزانة سرّية داخل مكتب فهد وجدت الشرطة علبة صغيرة فيها خاتم ذهبي قديم بحجر فيروز باهت، وساعة طبيب نفسي، ومفتاح صغير؛ حفظ ذلك كله كما يحتفظ الصياد بغنائمه.

أُعيد الخاتم إلى أسرة الحاجة صفية، وكتبت حفيدتها رسالة صغيرة إلى لينا: «جدتي كانت تحبك، وكانت تقول إنك أنقى من في العمارة.»

وحين قرأتها لينا بكت أخيرًا؛ ليس بكاء الذعر الذي عرفته أشهرًا، بل بكاء من يخرج من نفق طويل.

رسالة من الزنزانة

بعد صدور الحكم بأسبوع وصلت إلى سجن الاستئناف رسالة مكتوبة بخط أنيق مائل.

قرأتها إدارة السجن أولًا كما هو معتاد، ثم أرسلتها إلى زهران، الذي قرر أن يحملها بنفسه.

«لينا»، قال وهو يجلس معها في حديقة المصحة، «وصلتني رسالة موجهة إليك من فهد.»

تجمدت، ومدّت يدها ثم سحبتها.

«هل قرأتها؟»

«نعم. لستِ مضطرة لقراءتها، لكنني أريدك أن تعرفي ما فيها. هي لا تحوي اعتذارًا ولا حنينًا ولا تهديدًا مباشرًا.»

«ماذا فيها إذن؟»

«سطر واحد في كل صفحة تقريبًا، يبدأ بالطريقة نفسها: "هل تذكرين حين..." ثم يذكر لحظات، لحظات جميلة صغيرة: شاي، وغروب، وجملة قلتِها يومًا. وفي نهاية كل لحظة: "أم أنك نسيتِ؟"»

أغمضت لينا عينيها:

«إنه يحاول من جديد.»

«نعم، ولا شيء غير ذلك. لا يعرف ماذا يفعل بدونك. يريد أن يعود إلى المكان الوحيد الذي شعر فيه أنه مهم: عقلك.»

«هل أستطيع أن أمزقها؟»

«إنها لكِ. ما تفعلينه بها قرارك.»

أخذت لينا الرسالة، ونظرت إلى ظرفها الأنيق، إلى اسمها المكتوب بخطه المائل. لم تفتحها. وقفت وسارت نحو سلة المهملات الحديدية في طرف الحديقة، ومزقتها نصفين، ثم أربعة، ثم ثمانية.

«لن أترك له بابًا»، قالت وهي تُلقي القصاصات حتى الباب الصغير.

لم يعلق زهران. وحين عاد بها إلى الممشى قالت بهدوء:

«هل تعرف ما أصعب شيء؟»

«ماذا؟»

«أنني أتذكر فعلًا بعض تلك اللحظات. لحظات جميلة. ولست أعرف كيف أحزن عليها وأنا أعرف ما كان وراءها.»

«هذا حزن مشروع»، قال زهران بصوت رقيق. «عليك أن تحزني على ما حدث، لا على من فعله.»

الدكتورة منى شاهدة

في قاعة المحاكمة نُودي على «الدكتورة منى فؤاد».

صعدت منصة الشهود بخطى هادئة، بدلتها الرمادية مكوّية، وفي عينيها ثبات عشرين عامًا من الممارسة.

سألها الادعاء: «دكتورة، هل تعرفين المتهم؟»

«أعرفه من خلال مريضتي. لم أقابله إلا مرة واحدة، حين جاء يطلب إلغاء أحد مواعيدها.»

«وما رأيك في حالة السيدة لينا؟»

نظرت منى إلى القاعة، حيث جلست لينا في الصف الثاني بين أمها وهالة، يدها في يد سميّة.

«السيدة لينا مصابة بما نسميه اضطراب الانفصال، وهو استجابة نفسية لصدمة قديمة، يتجلى في فجوات ذاكرة. وأود أن أوضح أمرًا مهمًّا: هذا الاضطراب لا يدفع صاحبه إلى العنف، بل على العكس؛ هؤلاء المرضى هم الأكثر عرضة لأن يؤذيهم الآخرون.»

«لكن الدفاع يقول إن الزوجة قد ترتكب أفعالًا لا تتذكرها.»

«وهذا يا سيدي خلط شائع بين الأمراض النفسية والجريمة. المريض النفسي أكثر عرضة لأن يكون ضحية لا جانيًا. والذين يقولون العكس لا يستندون إلى علم، بل إلى خوف.»

تحرك محامي الدفاع في كرسيه:

«ولكن ألا يمكن أن يكون اضطرابها قد ازداد؟»

«بل ازدادت أعراضها، نعم. لكن ليس من تلقاء نفسها. تحاليل الدم أظهرت مهدئًا قويًّا بتركيز لا يتناسب مع أي وصفة عندي، وأي إنسان مخدَّر بهذا الشكل يعاني فجوات وهلوسات. المرض لم يكن هو السبب؛ كان هو الغطاء.»

ساد صمت ثقيل.

سأل القاضي بنفسه: «دكتورة، هل تعتقدين أن السيدة لينا مسؤولة جنائيًّا عن أي من هذه الحوادث؟»

التفتت مني نحو لينا، وقالت بصوت واضح لا يتردد:

«لا. وأضيف: إن وجود اضطراب نفسي لدى شخص لا يمنحنا حق أن نقرر نيابة عنه ما فعل وما لم يفعل. هذه المرأة تم التلاعب بها، وكل من استخف بمرضها شارك، دون أن يقصد، في الجريمة.»

وفي الصف الثاني أغمضت لينا عينيها، ودمعة هادئة نزلت على خدها.

الزيارة الأخيرة

في الليلة التي سبقت التنفيذ طلب فهد أن يرى زهران.

لم يكن زهران يريد، لكن قاعدته القديمة علّمته أن من يطلب لقاءً أخيرًا قد يملك جملة أخيرة.

جلسا في غرفة صغيرة، بينهما طاولة معدنية. كان فهد نحيلًا شاحبًا، لكن عينيه ما زالتا تحتفظان بتلك النظرة الهادئة التي تتفحص كأنها تقيس.

قال فهد مبتسمًا: «جئتَ!»

«لدي عشر دقائق.»

«لا أحتاج أكثر. أردت أن أسألك سؤالًا واحدًا فقط: كيف عرفت؟»

«لم أكن أعرف. كنت أراجع.»

«لا. كان هناك لحظة.»

صمت زهران قليلًا، ثم قال:

«حين لمست يدها خلف الزجاج، أصابعها تراجعت نصف ثانية. يا فهد، لا أحد يتراجع من لمسة حبيبه الحقيقي. حتى الذي لا يتذكر، جسده يتذكر.»

ابتسم فهد، ثم ابتسم أكثر:

«أحسنت. أتعلم؟ فكرت دائمًا أن الخطأ الوحيد سيكون في الأدلة. لم أتخيل أن يكون في الجسد.»

قال له زهران: «هل تريد أن تقول شيئًا آخر؟»

«أريد أن أقول إنني لا أشعر بشيء. لا ندم ولا خوف. أنت تنتظر مني دمعة أو اعتذارًا، أليس كذلك؟»

«أنا لا أنتظر شيئًا.»

« كذّاب. كلكم تنتظرون. تريدون أن تروا أنني بشر.»

«أنت بشر يا فهد. هذا ما يجعل الأمر أسوأ.»

اختفت الابتسامة قليلًا.

«وكيف حالها؟» سأل أخيرًا، بنبرة لم تُخفِ شيئًا من الفضول.

«ترتاح.»

«هل تسأل عني؟»

«لا.»

سكت فهد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها زهران شيئًا في وجهه يشبه الانكسار، ليس حزنًا، بل فراغًا، كمن اكتشف أن اللعبة التي ظنها طويلة انتهت قبل أن يشبع منها.

قال فهد بعد صمت طويل: «عندي طلب أخير.»

«لا أحمل رسائل.»

«ليست رسالة.» هزّ رأسه قليلًا، وفي شفتيه ابتسامة باهتة. «إنه اعتراف.»

«اعترافك عندنا منذ أسابيع، وقد حُكم عليك به وبغيره.»

«ذلك كان لكم. أما هذا فلها، لها وحدها. لا أريده في ملف ولا في جلسة. المحكمة أخذت ما تريده، ولم يعد لها عندي شيء.»

تردد زهران. كان يعرف أن الكلام في الليلة الأخيرة لا يخلو من حيلة، وأن فهدًا لا يفعل شيئًا بلا حساب. لكنه كان يعرف أيضًا أن امرأة في مصحة على أطراف المدينة ما زالت تسأل نفسها سؤالًا لم يشبعه كل ما سمعته خلف الزجاج.

«وإن لم تشأ أن تسمعه؟»

«فلن يسمعه أحد. ستكون هذه أول مرة أترك لها فيها الاختيار.»

أخرج زهران من جيبه جهاز تسجيل صغيرًا ووضعه على الطاولة المعدنية بينهما، وضغط الزر. أضاء ضوء أحمر خافت.

«تكلّم.»

اعتدل فهد في جلسته وأرخى كتفيه، ثم انحنى نحو الجهاز كمن ينحني نحو أذن قريبة. وحين تكلّم لم يكن صوته هو الصوت الدافئ الذي عرفته لينا، بل صوتًا مسطّحًا هادئًا بلا ثنيات:

«لينا.»

«لن أقول "حبيبتي" هذه المرة؛ لقد استنفدتُ الكلمة في ثلاث سنوات، ولم تعد تصلح لشيء. وهذا صوتي كما هو. أظنك لم تسمعيه من قبل؛ فقد أنفقتُ عمري كله في تلطيفه.»

«لا أعرف من أين جاء هـــذا الشيء الذي في داخلي. لن أدّعي لك طفولة قاسية؛ فلم تكن لي طفولة قاسية. ربما وُلد معي، وربما نما كلما أطعمتُه. كل ما أعرفه أنني منذ كنت صغيرًا أنظر إلى الناس فلا أجد ما يجدونه بعضهم في بعض، وأجد في المقابل ميلًا هادئًا إلى أن أكسرهم؛ أكسرهم بشكل قاسٍ، أن أرى كم يحتملون. كنت أسميه فضولًا. ثم كبرتُ وفهمت أنه ليس فضولًا، بل شيء آخر أسوأ بكثير، وأن من يحمل مثل هذا لا بد له من ستار.»

«وجدتُك في معرض الكتاب. لم يكن الاصطدام مصادفة. كنت أبحث عن امرأة مثلك: لها ملف عند طبيبة، وأقراص في حقيبتها، وفجوات تُسقط من أيامها ساعات لا تعرف أين ذهبت. امرأة إن وقع شيء حولها، فتّش الجميع في ذاكرتها قبل أن يفتشوا في ذاكرتي. قلت لنفسي: هذا هو الستار، جاهزًا قبل أن أحتاج إليه.»

«تزوجتك يا لينا قبل أن أقتل أحدًا. أتفهمين؟ لم أتزوجك بسبب جريمة وقعت، بل بسبب الجرائم التي ستقع. تزوجتك لتكوني الظل الذي أتركه خلفي حين أمضي.»

«وكنت أريدك لي وحدي؛ لا أن تحبيني وحسب، بل ألا يبقى فيك موضع لأحد غيري. كلما رأيتك تقتربين من إنسان، كنت أشعر أن شيئًا يخصني يُنتزع من يدي. الحاجة صفية كانت تطعمك وتقول إنك أنقى من في العمارة، وكنتِ بجوارها تبدين أقوى. الدكتور عادل وجد في ملفك القديم ما كان سيعيدك إلى نفسك. ورشدي رآني فقط، ولم يكن يعنيه أمرك، ولهذا كان أسهلهم. ومنى اكتفيتُ بإلغاء مواعيدك معها. وهالة لم يكن بيني وبينها غير صفارة حارس.»

«لم أغضب من أحد منهم. هذا ما لم يفهمه الجميع: لم يكن في الأمر غضب ولا ثأر. كنت أغلقهم كما يُغلق المرء نافذة بدأ يتسرب منها الهواء.»

«ولأنني لا أحب الصدفة، لم أترك لهم من الأدلة إلا ما يخصك: وشاحك القديم جعلته يحمل أصابعك حيث أردت، ومعطفك الرمادي لبسته وأنتِ نائمة على الأريكة بعد كوب الشاي، وخطّك تعلّمتُ أن أكتبه بيمنى مرتجفة كما تكتبين بيسراك، وكنت أتدرّب عليه في الليالي وأنتِ إلى جواري، وخاتم الحاجة صفية وضعتُه في حقيبتك ذات ليلة، لا لأتهمك به وحسب، بل لأرى وجهك حين تجدينه. فالإنسان يصدّق أنه أخطأ بشيء يخصه أسرع بكثير مما يصدّق أنه أُخطئ بحقه. وفي الغد أخذتُه، وبقي عندي. أما الباقي فكنتِ تفعلينه بنفسك: كنتِ تشكّين في نفسك.»

«وتريدين أن تعرفي أصدق ما عندي؟»

«جملة لم أقلها لك في الثلاث سنوات: أنتِ لستِ مجنونة. لم تكوني. وأكثر الفجوات التي كنتِ تخافينها صنعتُها بيدي، مع الشاي والأقراص. المرض الذي كنتِ تعتذرين عنه لم يكن فيكِ، كان فيّ.»

«لن أطلب أن تسامحيني، ولن أكذب عليك في آخر كلامي: فلا ندم عندي. قلتُ لزهران إنني أحببتك بطريقتي، ولا أعرف إن كانت هذه حقيقة، أم آخر ما بقي لي من الأقنعة.»

«هذا كل ما عندي. أوقفي الجهاز حين تشائين. أنتِ من يملك الزر الآن، لأول مرة.»

ساد صمت، ثم مدّ زهران يده وضغط الزر، فانطفأ الضوء الأحمر.

سأل فهد دون أن يرفع عينيه: «هل ستعطيها إياه؟»

«إن أرادت.»

«وإن لم ترد؟»

«سيبقى في الدرج حتى تريد، أو حتى لا تريد أبدًا.»

وضع الجهاز في جيبه. كان يدرك أن فهدًا، حتى في ليلته الأخيرة، يحاول أن يدخل رأسها بصوته، وأن يبقى فيها ما بقي فيها شيء. لكنه كان قد لاحظ أمرًا آخر: أن الرجل الذي لم يترك لأحد خيارًا طوال ثلاث سنوات ترك لها الزر.

«تعرف ما أصعب شيء عليّ؟» قال بصوت منخفض. «أن أموت دون أن تنظر إليّ بالنظرة التي أحببتها.»

«أي نظرة؟»

«النظرة التي تقول: "أنت أقوى مني".»

ووقف زهران:

«لن تراها يا فهد، لأنها ليست الحقيقة.»

«وما الحقيقة؟»

«الحقيقة أن امرأة كسرتها لسنوات وقفت على قدميها وحدها، وأن رجلًا عجوزًا دوّن رقم سيارتك، وأن أمًّا لم تثق بك منذ اللحظة الأولى، وأنك رغم كل ذكائك خسرت أمام الناس العاديين.»

خرج زهران دون أن ينظر خلفه.

ولم يسمعه أحد وهو يهمس لنفسه، حين أُغلق الباب، بجملة قصيرة: «عاديون... ربما كنتُ أحتقرهم أكثر مما ينبغي.»

* * *

بعد تنفيذ حكم الإعدام بأسبوع جاء زهران إلى المصحة في مساء هادئ، ومعه ظرف بنيّ صغير.

جلسا على المقعد الخشبي في الحديقة. لم يتكلم أحدهما لدقائق، ثم وضع الظرف على المقعد بينهما:

«تركه لك. لك وحدك. أنا سمعته لحظة التسجيل، ولن يسمعه أحد بعدي.»

«هل فيه ما أحتاج إلى معرفته؟»

«لا. لا شيء تحتاجينه فيه. فقط ما قد ترغبين في معرفته.»

نظرت لينا إلى الظرف طويلًا، كما تنظر إلى كوب لا تعرف ما فيه، ثم أخذته:

«لا أدري إن كنت سأسمعه.»

«لا يُلزمك أحد.»

في تلك الليلة سمعته وحدها، والنافذة مفتوحة على الحديقة. لم تبكِ حين بدأ الصوت، ولم ترتجف حين قال: «تزوجتك قبل أن أقتل أحدًا». ظلت جالسة، يداها على ركبتيها، تصغي كمن يصغي إلى حكم يُتلى على غيرها. وحين وصل الصوت إلى الجملة التي لم تُقل لها في ثلاث سنوات، أغمضت عينيها وبقيت هكذا حتى سكت كل شيء.

وفي الصباح وجدت زهران ينتظر عند البوابة. مدّت له الظرف.

قالت: «احتفظ به أنت، أو ضعه حيث توضع الأشياء التي لا يراد لها أن تُنسى ولا أن تُسمع ثانية.»

«هل أخبرك بشيء جديد؟»

«شيء واحد: ثلاث سنوات وأنا أنتظر أن يقول لي أحد: "أنتِ لستِ مجنونة". لم أتخيل أن يكون هو من يقولها.»

ابتسمت ابتسامة صغيرة متعبة، ليست فيها مرارة ولا فرح:

«لكنني لن أحتاج إلى صوته لأصدّق نفسي بعد الآن.»

الياسمين

بعد المحاكمة كان عم عبد الستار يقف كل صباح أمام باب العمارة في المعادي، يمسح الرخام للمرة الثالثة ويراقب الشارع.

لم يستطع أن ينسى ما قاله في التحقيق: «أنا رأيت المدام وهي نازلة...»

«رأيت المعطف»، كان يردد في سره، «رأيت المعطف ولم أرَ الوجه.»

وفي صباح يوم من الأيام توقفت أمام العمارة سيارة أجرة، ونزلت منها لينا ومعها هالة؛ جاءتا لتأخذا بعض الأوراق من صندوق البريد.

وقف عم عبد الستار متجمدًا، وفي يده قطعة القماش التي يمسح بها. ثم ذهب إلى سلة صغيرة بجانب مكتبه وأخرج منها باقة ياسمين كان قد اشتراها منذ أيام ولم يجرؤ أن يعطيها لأحد.

«يا مدام لينا...»

التفتت إليه.

«أنا... جئتُ... أقصد أنا كنت...»

«عم عبد الستار.»

«أنا قلت للضابط إنني رأيتك، وكنت أظن...»

«أنت قلت ما رأيته»، قاطعته بهدوء.

«لكنني لم أرَ وجهك. كان يمكنني أن أقول ذلك من أول الأمر. كان يمكنني أن أكون أشجع.»

نظرت إليه لينا طويلًا بعينين هادئتين، ثم ابتسمت:

«هل تتذكر أنك كنت دائمًا تفتح لي الباب حين أحمل أكياسًا ثقيلة؟»

«طبعًا.»

«لم أنسَ هذا.»

مدّ لها الياسمين بيد مرتجفة. أخذته وقرّبته من أنفها، ثم قالت:

«شكرًا. هو جميل.»

«أنا آسف يا مدام.»

«وأنا أقبل. ليس لأنك أخطأت، بل لأنك جئت واعتذرت.»

وحين صعدتا إلى الطابق الرابع، لم تدخل لينا شقتها. وقفت أمام باب الحاجة صفية القديم، ووضعت الباقة على عتبته، ووقفت لحظة صامتة.

همست: «هذه لكِ يا حاجة. أنتِ قلتِ لي إنني أنقى من في العمارة. أنا كنت أحاول أن أصدق.»

ثم نزلت ولم تلتفت إلى الخلف.

بعد المطر

(بعد عام)

كانت المصحة مبنًى هادئًا على أطراف المدينة، أشجاره عالية وبوابته مفتوحة. لم تكن سجنًا ولا ملجأً للمجانين؛ كانت، كما قالت الدكتورة منى حين استقبلتها، «مكانًا تتعلمين فيه أن تثقي بنفسك من جديد».

لم يكن الأمر سهلًا.

كانت لينا تستيقظ في الليل مرتجفة، تبحث في الظلام عن كوب ماء لا تثق به، وتفتح الأدراج بحذر، وتنظر إلى أيدي الناس قبل أن تنظر إلى وجوههم، وتسأل نفسها: هل هذا صوتي أم صوته؟ هل هذه ذكرى أم لعبة؟

جلسات طويلة مع منى. أسابيع من الصمت. أشهر من تعلّم الكلام بصيغة «أنا»، لا «هو قال» ولا «هو يعتقد». ثم، ببطء مؤلم، بدأت الأشياء الصغيرة تستعيد معناها: الشاي بلا خوف، والنوم بلا أقراص خفية، والمرآة التي تراها فيها وجهًا واحدًا.

في جلسة مبكرة قالت لمنى:

«أحيانًا أفتقده.»

لم تدهش الطبيبة.

«ليس هو»، قالت. «افتقدتِ الشخص الذي ظننتِه. وذلك حزن مشروع. يمكنك أن تفتقدي الحلم دون أن تغفري للحالم.»

وفي مساء من مساءات الخريف زارها زهران.

جاء بلا بدلة رسمية، ومعه كيس من الفاكهة وكتاب شعر قديم. جلسا في الحديقة؛ كانت الشمس تميل نحو الغروب.

«تبدين أفضل.»

«أنا أحاول.»

«هذا أصعب ما في الأمر: أن تحاولي.»

سكت قليلًا، ثم مدّ لها الكتاب. كان كتاب نزار، النسخة نفسها التي تناثرت منها صفحاتها في معرض الكتب قبل سنوات:

«وجدته في شقتك. أظنه يخصك.»

أمسكته لينا بيد ترتجف ارتجافًا خفيفًا، ثم ابتسمت:

«لماذا صدقتني يا سيدي؟ لم يصدقني أحد، حتى أنا.»

نظر زهران إلى الأفق وقال:

«لم أصدقك. لم أكن أعرفك. لكنني لاحظت أنك تسألين. والسؤال... السؤال دليل على أن في داخلك ضميرًا لا يزال حيًّا. القاتل لا يسأل: "هل أنا قاتل؟" القاتل يعرف.»

صمتا، ثم أضاف:

«وإلى جانب ذلك، لم أتحمل أن أرى أصابعك تتراجع حين لمسك.»

نظرت إليه بدهشة:

«رأيتها؟»

«رأيتها.»

وابتسمت لينا ابتسامة صغيرة، ولكنها أول ابتسامة تخصها وحدها منذ أعوام.

* * *

في تلك الليلة، حين عادت إلى غرفتها، فتحت دفترًا جديدًا اشترته من مكتبة المصحة: دفترًا أبيض ناصع الصفحات، غلافه أزرق.

أمسكت القلم بيدها اليسرى.

ترددت لحظة، ثم كتبت بحروف مرتجفة متداخلة غير منتظمة، تميل قليلًا إلى اليســـار، حروف لا يمكن أن يقلدها أحد، لأنهـــا لا تُتقن إلا بالصدق:

«اسمي لينا.»

«أنا أحب الشعر، والشاي بالنعناع، ورائحة المطر.»

«لقد أخطأت حين صدّقت من لا يستحق.»

«ولكنني لم أُخطئ حين أحببت.»

«وغدًا... سأستيقظ وأنا أعرف من أنا.»

أغلقت الدفتر ونظرت من النافذة. كان المطر قد توقف منـذ وقت، وفي الأفق خيط رقيق من ضوء الفجر يلمع على أوراق الأشجار كأنه وعد.

وفي الممر أمام غرفتها كانت أمها تجلس على كرسي خشبي، تنتظر كما كانت تنتظر دائمًا.

فتحت لينا الباب ومدّت يدها.

وأمسكتها الأم بقبضة من حديد وحنان، وقالت:

«تعالي يا حبيبتي. الفجر طلع.»

قبر سليم

في الذكرى الثالثة لوفاة سليم ذهب زهران إلى مقابر الإمام الشافعي.

كان الجو غائمًا، والتراب الأحمر يحتفظ برطوبة المطر. وقف أمام قبر صغير بلا شاهد مميز، ووضع باقة صغيرة من الورود البيضاء، وجلس على الحجر المجاور.

قال بصوت منخفض: «مرحبًا يا سليم.»

لم يجبه سوى الريح.

«جئتُ أخبرك شيئًا.»

سكت قليلًا، ثم تابع:

«كانت هناك امرأة تشبهك قليلًا. مريضة، أو هكذا ظنّها الجميع. اتّهموها، وكان الدليل كله ضدها، حتى هي ظنّت أنها فعلت.»

نظر إلى السماء الرمادية:

«وأنا... لأول مرة لم أقفز إلى نتيجة. لم أقل: "هي". انتظرت. قرأت. كنت أقول لنفسي: ربما سليم ينظر إليّ من مكان ما.»

أخرج كتابًا صغيرًا من جيبه، لم يكن سوى كتاب قصير من الشعر:

«أتتذكر حين قلتَ لي في السجن إنك تحب أن تسمع الشعر؟ كنت أظن أنك تقول ذلك لتجاملني. لم أصدقك.»

وضع الكتاب بجانب الورود:

«أنا آسف. لن أكرر. وهذه المرة لم أُكرر.»

صمت طويلًا، ثم نهض ونفض التراب عن بنطاله:

«وداعًا يا صديقي.»

وحين سار بين القبور نحو بوابة المقبرة، شعر بأن شيئًا ثقيلًا انزاح عن صدره، شيئًا حمله أحد عشر عامًا. لم يبكِ، لكنه تنفس بعمق، كأنه يتنفس بعد زمن طويل.

خاتمة

(بعد خمس سنوات)

كانت المكتبة الصغيرة في حي المعادي تفتح أبوابها في التاسعة كل صباح.

وفي أحد الأيام من خريف السنة الخامسة وقفت امرأة عند المنضدة، تعدّل قلادة صغيرة على صدرها، وتبتسم لطفلة تسألها عن كتاب:

«هذا للكبار يا حبيبتي، لكنني سأعطيك واحدًا أجمل.»

كانت لينا أنحف قليلًا، أهدأ كثيرًا، وفي عينيها شيء لم يكن فيهما قبل خمس سنوات: ثقة صغيرة ثابتة لا تتهاوى.

أنهت علاجها الأساسي بعد عامين وبدأت تعمل مرة أخرى، ومنذ عام صارت تقود مجموعة دعم صغيرة في المكتبة، كل خميس مساءً، لنساء تعرضن لما يشبه ما تعرضت له: التلاعب، والتشكيك في الذاكرة، والعزلة.

كانت تقول لهن دائمًا:

«لا توجد وصفة لتصديق النفس. هناك فقط خطوة صغيرة بعد خطوة. اليوم تصدقين أنك أكلتِ فطورك، وغدًا تصدقين أنك قلتِ "لا"، وبعد غد تصدقين أنك تستحقين أن تُصدَّقي.»

وكانت إحداهن، شابة صغيرة ترتجف دائمًا، سألتها ذات مرة:

«وهل تسامحين؟»

قالت لينا: «لا أعرف. أظن أن المسامحة ليست شرطًا للتعافي. أظن أن الشرط هو أن نتوقفي عن الدوران حول الألم.»

في ذلك المساء، بعد انصراف الجميع، جاءها زائر قديم.

كان زهران، وقد شاب شعره قليلًا. لم يعد في الخدمة؛ فقد أُحيل إلى التقاعد قبل شهور. جاء ومعه كيس برتقال، كما يفعل كل مرة.

«حضرة المتقاعد»، قالت مازحة.

«لينا هانم»، ردّ بابتسامة.

جلسا في الركن الهادئ حيث تقرأ لينا للأطفال أيام الجمعة.

«سمعت أنك ستفتحين فرعًا جديدًا؟»

«في الإسكندرية.»

نظر إليها وسكت لحظة، ثم ضحك:

«من تلك المدينة بالذات؟»

«نعم. ليست المدينة هي من أخطأ.»

أومأ زهران:

«ووالدتك؟»

«تأتي كل ثلاثاء، تجلس هناك، وتعدّ الكتب، وتتذمر من ترتيبها.»

كانت الحاجة سميّة، كالعادة، جالسة في الركن تتظاهر بالقراءة وعينها على ابنتها.

وقبل أن ينصرف زهران، وضع على الطاولة شيئًا صغيرًا ملفوفًا بورق بني:

«هدية قديمة. جاءت إليّ من أرشيف القضية، ولا أحد يطالب بها.»

فتحته لينا. كانت المفكرة الصغيرة التي كتبها رشدي، الرجل الذي كان يدوّن. وفي صفحتها الأخيرة سطر بحبر أزرق:

«إن رأيتُ ولم أُدوّن فقد خنتُ الأمانة.»

أغلقت لينا المفكرة بحنان، وقالت:

«سأضعها في المكتبة، في ركن خاص.»

«لمن؟»

«لكل من رأى شيئًا وخاف أن يقول»

ابتسم زهران ونهض.

وفي الخارج كان المطر يتساقط ببطء على الرصيف، مطراً خفيفًا دافئًا لا يشبه مطر تلك الليلة الأولى. وقفت لينا عند الباب تراقبه، ثم أطفأت النور، وأغلقت المكتبة، وسارت في الشارع بخطوات هادئة.

لم تلتفت إلى الخلف.

* * *

النهاية